

شرح منظومة

السير إلى الله والدار الآخرة

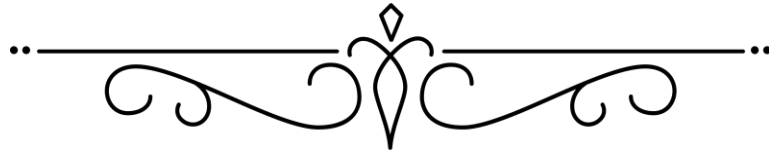
إعداد: هيفاء بنت عبدالله الرشيد

الوصية: @AlWasiyyah

<https://t.me/AlWasiyyah>

شرح منظومة

السير إلى الله والدار الآخرة



إعداد: هيفاء بنت عبدالله الرشيد

الوصية: @AlWasiyyah

<https://t.me/AlWasiyyah>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المقدمة

بسم الله الذي باسمه تفتتح الأوائل، والحمد لله الذي بحمده تنجح الوسائل، وصلى الله على محمد نبيه المنتخب من أشرف البطون والفصائل، وأكرم العماير والقبائل، وعلى آله وصحبه الداعين إلى المكارم والفضائل .. وبعد:

نبدأ دراسة منظومة (السيرة إلى الله والدار الآخرة) للعلامة عبدالرحمن السعدي - رَحِمَهُ اللهُ -، فيه نستعين وعليه نتوكل ونسأله التوفيق والقبول وأن يجعل لقاءنا هذا قرابة إلى ربنا، وأن يثقل به موازين حسناتنا يوم أن نلقاه.

أذكر نفسي وإياكم بالغاية التي خلقنا من أجلها، حيث قال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، وبالطريق الموصل إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، يقول الله في كتابه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)، فخلقنا الله - جَلَّ جَلَالُهُ - لعبادته وحده، وبين لنا الطريق، وأخبرنا أنه طريق واحد، فالطريق الموصل إلى رضوان الله واحد لا

(١) [سورة الذاريات: (٥٦)].

(٢) [سورة الأنعام: (١٥٣)].

ثاني له، وأما الطرق الموصلة إلى غير الله فهي كثيرة نسأل الله أن يعيذنا منها، فأرشدنا سبحانه وحثنا على اتباع هذا الطريق الوحيد المستقيم وندع ونتجنب سواه.

إن الإنسان في هذه الدنيا سائر إلى الله عبر هذا الطريق، هو في سفر في الحقيقة، مسافر عبر هذا الطريق حتى يصل إلى الآخرة وحينها تنتهي مدة سفره، كلنا نعلم أن الله خلق أبونا آدم بيده الشريفة وخلقته في الجنة، إذن هذا هو ووطننا، فلحكمة أرادها الله من أبونا آدم أخرجه منها ليختبره، ثم ليعود إليها، الدنيا ليس بوطن نستوطنه للأبد، فعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) (٣).

لذا فعلى المؤمن أن يجعل الدنيا دار عمل وعبادة ليحصل ثواب ذلك في الآخرة؛ لأن الآخرة هي دار القرار، وليست الدنيا إلا داراً فانية ستنتهي إن عاجلاً أو آجلاً.

عابر السبيل أشد زهداً في مغريات طريقه من الغريب؛ لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربة ويقيم فيها، بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد، وبينه وبين بلده مسافات شاسعة، وهو في حالة تخفف دائمة من الأثقال حتى لا تعيقه أو تؤخره عن بلوغ مقصده.

(٣) [أخرجه البخاري: (٦٤١٦)].

والمراد: أن على المؤمن أن يستحضر - في قلبه دائماً حالة الغريب أو المسافر - حاجته وغايته في تعامله مع شهوات الدنيا ومتطلباتها؛ ليصل بذلك إلى آخرته - التي هي دار إقامته الدائمة - في أسلم حال؛ فهو لا يركن إلى الدنيا، بل يعلق قلبه بالدار الآخرة، فإذا فاجأه الموت كان كمن وصل إلى غايته.

وقد تعلم ابن عمر - رضي الله عنهما - هذا الدرس ووعاه جيداً، فكان يقول لنفسه ولغيره: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح)؛ ألا تؤخر عملاً من الطاعات إلى الصباح؛ فلعلك تكون من أهل القبور، وإذا أصبحت فلا تؤخر عمل الخير إلى المساء؛ فقد يعاجلك الموت، واغتنم الأعمال الصالحة في الصحة قبل أن يحول بينك وبينها المرض، واغتنم حياتك في الدنيا، فاجمع فيها ما ينفعك بعد موتك.

لذا علينا التفكير في فناء الدنيا وعدم دوامها يؤدي بالعبد إلى الاستقامة، والمواظبة على صالح الأعمال، والحث على التشبه بالغريب وعابر السبيل؛ فكلاهما لا يلتفت إلى الدنيا.

إذا: فالتقوى الحقيقية هي: أن يجتهد العبد في ترك الذنوب كلّها صغارها وكبارها، ويجتهد في الطاعات كلّها الواجبات والنوافل ما استطاع، والتي منها طلب العلم، فمن هذا الزاد الذي نستعين به على هذه الدنيا للآخرة هو مدارس العلم، بل هي من أفضل وأجل الطاعات، لذلك علينا أن يزيد من معرفتنا بربنا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، واتباع نبيه - ﷺ -، قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (المحبة شجرة في القلب؛ عروقها: الذلُّ للمحجوب، وساقها: معرفته، وأغصانها: خشيتها، وورقها:

الحياء منه، وثمرتها: طاعته، ومادتها التي تسقيها: ذكره، فمتى خلا الحبُّ عن شيء من ذلك، كان ناقصاً^(٤).

فالعلم من أفضل الذكر ويجلب الخشية من الله، لذلك قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٥)، فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والا استعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته.

إنما يخشاه فالذين يخشون الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر^(٦).

فالعلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله.

فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض.
والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض.

(٤) [(@)].

(٥) [سورة فاطر: (٢٨)].

(٦) [تفسير ابن كثير: ()].

والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله - عَزَّوَجَلَّ - .

ومن أراد العلم فعليه بالتقوى؛ فهما متلازمان لا ينفكان، لذلك قال - جَلَّ جَلَالُهُ -: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(٧)، العلم الذي هو ثمرة التَّقْوَى هو العلم النَّافِع، والعمل الذي يَنْصَلِح به العبد حقيقة، والذي يَفَرِّق به بين الحقِّ والباطل والهدى والضلال، ويفتح الله به عليه في الفهم، ويكشف الله به أمورًا ومشتبهات قد يَغفل عنها سواه، وهو علمٌ توفيقِي.

المراد من العلم العمل، فإذا لم يَقْتَرْنَا، كان العلم غير نافع لصاحبه، وإن كان نافعًا بالأصالة؛ لذلك يكون الباب في العلم نافعًا لفلان وغير نافع لفلان، بحسب الاستفادة لا بحسب العلم نفسه، وهذا حجة على صاحبه.

لذا عدم التقوى سبب لكل حرمان، إذ أن للذنوب والمعاصي شؤم، يحرم العاصي من الخير الكثير، يقول نبينا - ﷺ -: (لا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبَرُّ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ)^(٨).

أنَّ مَّا يَضِيقُ عَلَى الْعَبْدِ رِزْقَهُ: ذُنُوبُهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الذُّنُوبَ مَانِعَةٌ لِلتَّوْفِيقِ عَلَى الْخَيْرِ، وَمَجْلِبَةٌ لِلشَّرِّ، فَالْحَرَمَانُ عَنْ رِزْقِ التَّوْفِيقِ أَعْظَمُ حَرَمَانٍ، وَكُلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ يَدْعُو

(٧) [سورة البقرة: (٢٨٢)].

(٨) [رواه ابن ماجه (٤٠٢٢)].

إلى ذنب آخر، ويتضاعف فيُحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين، بل يُمقِّتُه الله تعالى ليمقِّتَه الصالحون.

ولهذا الحديث سرٌّ آخر، وهو أنَّ الحرمان قد يكون بالنسبة إلى الرِّزق المعنوي والروحاني، وقد يكون من الرِّزق الظاهر المحسوس.

ولا يقدح فيه ما يرى من أنَّ الكفرة والفسقة أعظمُ مالا وصحةً من العلماء؛ لأنَّ الكلام في مسلم يُريد الله رفعَ درجته في الآخرة، فيعقبه من ذنوبه في الدنيا.

تقوى الله مجلبةٌ للرِّزق، فترك التقوى مجلبةٌ للفقر، فما استجلب رِزق الله بمثل ترك المعاصي، ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلاً ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة، وهذا أمرٌ لا يحسُّ به إلا مَنْ في قلبه حياة^(٩).

فلا بد من العلم أولاً والتقوى هي ثمرة العلم، قد يعلم الإنسان ولا يتَّقِي، فإذا اتقى علَّمه الله ما ينفعه، بل وينجِّيه ويثبِّته، ويزيده علماً على علمه.

نسأل الله الهدى والتقوى والعفاف والغنى، نسأل الله في هذه الأيام المباركة أن يتفضل علينا بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يصرِّف أوقاتنا وأوقات ذرياتنا والمسلمين أجمعين في تحصيله.



(٩) [الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٣٥)].



نبذة عن المؤلف

(اسمه ونشأته):

هو الشيخ العلامة أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر السعدي من آل سعدي من تميم ويعرف اختصاراً ابن سعدي. ولد في بلدة عنيزة في القصيم ١٨٨٩ يوم ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية.

(النشأة):

قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة، ثم أشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم.

ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم، ويقضي- جميع أوقاته في ذلك حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعاً إليه، ومعول جميع الطلبة في التعلم.

(طلابه):

من أبرز طلابه الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -.

(مشايخه):

أخذ السعدي عن الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر - رَحِمَهُ اللهُ - وهو أول من قرأ عليه وكان يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدث عن ورعه ومحبه للفقراء مع حاجته ومواساتهم، وكثيرًا ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه، وقلة ذات يده.

ومن مشايخه الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل - رَحِمَهُ اللهُ -، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما، والشيخ صالح بن عثمان القاضي - رَحِمَهُ اللهُ - قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه ولازمه ملازمة تامة حتى توفي.

كما تعلم وأخذ من كل من الشيخ عبدالله بن عايض - رَحِمَهُ اللهُ -، والشيخ صعب التويجري - رَحِمَهُ اللهُ -، والشيخ علي السناني - رَحِمَهُ اللهُ -، والشيخ علي الناصر أبو وادي - رَحِمَهُ اللهُ - قرأ عليه السعدي في الحديث وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازه في ذلك.

(علمه ومذهبه):

تميز السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - بمعرفته التامة في الفقه أصوله وفروعه، وكان في أول أمره متمسكًا بالمذهب الحنبلي تبعًا لمشايخه وحفظ بعض المتون من ذلك، وكان له مصنف في أول أمره في الفقه نظم رجز نحو أربعمئة بيت وشرحه شرحًا مختصرًا، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقد أولًا، وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب

شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وبسبب استنارته بكتب الشيخين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي، بل يرجح ما ترجح عنده بالدليل الشرعي.

وله اليد في التفسير إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيها وألف كتاب في التفسير في عدة مجلدات، فسر به بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسره ارتجالاً، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده ويستنبط منه الفوائد والمعاني حتى أن سامعه يود ألا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه في سياق الأدلة والقصص ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات كذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه.

(مصنفاته):

صنف السعدي كتباً أهمها تفسيره القرآن الكريم المسمى تيسير الكريم المنان في ثمان مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤هـ — وقد نال هذا التفسير الكثير من الاهتمام حيث طبع له طبعات عديدة.

إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر — الأسباب، رتبته على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقى في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقته الخاصة ووزعه مجاًناً.

الدرة المختصرة في محاسن الإسلام، طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ.

الخطب العصرية القيمة، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت في الموضوعات الجليلة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً.

القواعد الحسان لتفسير القرآن، طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦هـ ووزع مجاناً.

وله فوائد مثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويحيب عليها، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب، وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً.

(الإرث الثقافي):

كان على جانب كبير من الأخلاق متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي - بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً.

كان - رَحِمَهُ اللهُ - يحرص أن يحتوي المجلس على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظيمة من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، وكثيراً ما يحل المشاكل بإرضاء الطرفين في الصلح العادل، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء يمد يد

المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله، ووصف بأنه من أحسن الناس تعليمًا وأبلغهم تفهيمًا، مرتبًا لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصلين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون، ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحكم، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال لأنهم يتلذذون من مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير.

(وفاته):

وبعد عمر دام قرابة ٦٦ عامًا في خدمة العلم توفي - رَحِمَهُ اللهُ - قرب طلوع الفجر من ليلة الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٣٧٦ هـ في مدينة عنيزة من بلاد القصيم.





التعريف بالمنظومة

هي منظومة رائعة، جميلة، مفيدة، ممتعة، مختصرة.

(السير إلى الله) :

السير: أي هناك طريق يسير فيه الإنسان للآخرة، كما أن هناك طرق في الدنيا توصل الإنسان إلى المكان الذي يريده، لن يصل الإنسان إلى المكان الذي يريده إلى عبور طريق موصل إليه، طبيعي، من غير أن يسير السائر في الطريق الذي أراده لن يصل، فلا بد أن يسير في الطريق للمكان الذي يريده.

فاختار - رَحِمَهُ اللهُ - هذا العنوان لمنظومته (السير إلى الله والدار الآخرة)، لا بد من السير في هذا الطريق، هو طريق لمدة من الزمن ويتفاوت الناس في هذه المدة، والكل لا بد أن يصل النهاية، إلى الدار الآخرة، طالت المدة أم قصرت، هذا الطريق ليس حسي إنما هو معنوي، وهو طريق واحد، واحد، وعليه يسير فيه الإنسان مراعيًا فيه سبل الأمان حتى يصل إلى الله والدار الآخرة بأمان.

فلا يستحيل أن يصل بأمان إلى بفعل أوامر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وترك نواهيه في أثناء سيره في الطريق، أمرنا بفعل الأوامر وترك النواهي حتى نفوز بالجنة، ولكن لا يعني أن الإنسان لن يصل بأمان دون أن يقع في الخطأ، كل ابن آدم خطأ وخير

الخطائون التوابون، لذلك عليه أن يعود إلى الله ويستمر في التوبة والعودة، إلى أن يصل إلى الدار الآخرة بأمان.

فالسير إلى الله: بمعرفته بأنه المستحق للعبادة، وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له، والذل والانكسار له وحده، فلا يعبد معه لا نبي مرسل ولا ملك مقرب. الطريق إلى الله هي ما ننشده في هذه الحياة، والطريق إلى الله - جَلَّ جَلَالُهُ - سبيل النجاة، فهي الطريق المستقيم وطريق الحق، وإذا أردنا أن نعرف طريقنا إلى الله، فعلينا أن نعرف الله، ومعرفة الله بالنظر إلى آياته الكونية، وفي كتابه الحكيم القرآن الكريم.

قال - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١٠)، وقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾^(١١)، وقال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٢)، وقال الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -

(١٠) [سورة البقرة: (١٦٤)].

(١١) [سورة العنكبوت: (٢٠)].

(١٢) [سورة الروم: (٢٢)].

: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾^(١٣)، إلى غير ذلك من الآيات التي توصل إلى الله - جَلَّ وَعَلَا - .

(الدار الآخرة):

من أن يتوفى الله عبده قامت قيامته، الدار الآخرة تبدأ من الموت وتنتهي بالجنة أو النار، الموحد مآله الجنة، نعم دخول الجنة برحمة رب العالمين، لكن رفعة الإنسان فيها بحسب أعماله في الدنيا، يقول - جَلَّ جَلَالُهُ -: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١٤).

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوا في الأرض، أي: ترفعا على خلق الله وتعاضما عليهم وتجبرا بهم، ولا فسادا فيهم.

فالنار أعدها الله لعباده الذي طغوا وبغوا، والجنة خلقها الله - جَلَّ وَعَلَا - بيده لعباده الموحدين، وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر فيها على قلب بشر لمن أطاعه وامثل لأوامره وانتهى عن نواهيه.

الناس يوم القيامة في الآخرة ينقسموا إلى قسمين: قسم في النار والقسم الآخر في الجنة، والدنيا امتحان فمن نجح فيها فاز بجنته، ومن خسر - فهو الهالك والعياذ بالله.

(١٣) [سورة الطارق: (٥)].

(١٤) [سورة القصص: (٨٣)].

(السير إلى الله والدار الآخرة):

يُرشدنا رحمه الله تعالى في هذه المنظومة إلى طريق السعادة الحقيقية؛ والسعادة الحقيقية هي الأبدية، ليس في الدنيا، إنما هي في الآخرة، الدنيا فانية، ومهما طالت مآلها للزوال.

عنون الشيخ هذا العنوان وكأنه يذكر الناس بالغاية التي خلقوا من أجلها، لأن أغلب الناس في غفلة عن هذه الغاية، انشغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له، أغلب الناس في رقدة عن الآخرة، شغلهم ملهيات الدنيا وملذاتها، ووصل بهم الأمر استعانوا بما سخر الله لهم ليعبدوه من النعم بالمعاصي، قابلوا الإحسان بالإساءة، باعوا الغالي بالرخيص، باعوا الباقي بالفاني، ركض غالب الناس وراء شهواتهم، وانكبوا على الدنيا وملهياتها، وكأن الدنيا هي دار قرار لهم!

فعنوان سعادة المرء ودلائل توفيقه إنما يكون في إنباته لربه؛ واستقامته على شرع الله ودينه؛ وإقباله على الله تعالى؛ بنية خالصة وعبودية صادقة؛ في كل حالاته، وألا تشغله الحياة الدنيا والسعي في تحصيل ما يؤمل منها عن الاستعداد للحياة الباقية والتزود للدار الآخرة، فذلك سبيل الصالحين.

فالعمر أقصر - من أن يضيع عبثاً وهو أقصر - من أن يحقق فيه المرء كل ما يتمناه، فالعاقل يحرص على تقديم عظام الأمور، قانعاً بما يصون وجهه في دنياه، مشمراً فيما يبلغه آخرته بسلام، وينجيه عند مناقشة الحساب.

وما حاز شيئاً من سلامة العقل من شغلته الدنيا عن الآخرة. فهل يصح - عقلاً - الإعراض عن الاستعداد لدار البقاء والخلود الأبدي؟ ثم بذل الجهود والإمكانات لبناء دنيا حكم عليها خالقها بالزوال والفناء! ألا ما أجهل مَنْ شَغَلَ نفسه بشيء مدبر خيره، عن شيء باق شره، لذا فشأن المؤمن أن تتصف حياته بالتناغم والانسجام بين دنياه وآخرته.

فالآخرة عنده هي: الهدف الأسمى، وغاية المنتهى، والدنيا هي الطريق التي لا بد من اجتيازها أولاً، ومن مراحل سيرها يكون التزود للدار الباقية.





المنظومة

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى
 وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرُّضْوَانِ
 فَهُمْ الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي مَشِيهِمْ
 مُتَشَرِّعِينَ بِشَرْعَةِ الْإِيمَانِ
 وَهُمْ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ
 بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدِّيَانِ
 وَهُمْ الَّذِينَ مَلَأُوا قُلُوبَهُمْ
 بِوُدَادِهِ وَحُبِّهِ الرَّحْمَنِ
 وَهُمْ الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ
 فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ
 يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِكِ بِفِعْلِهِمْ
 طَاعَاتِهِ وَالتَّوَكُّلِ لِلْعُضَيَّانِ
 فَعَلُوا الْفَرَائِضَ وَالنَّوَافِلَ دَأْبَهُمْ
 مَعَ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ وَالنُّقْصَانِ

صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا
شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ
نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمْ بِهَا
قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانٍ
شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ
بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ
صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ
مَعَ بَذْلِ جُهِدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَنِ
عَبَدُوا إِلَهَهُ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ
فَتَبَرَّؤُوا فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ
نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مُحِبِّهِمْ
بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ
صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا
أَرْوَاهُ فِي مَنْزِلِ فَوْقَانِي
بِاللَّهِ دَعَاةِ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا
خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ
عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا
قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ

حَرَكَاتُهُمْ وَهُمْومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ
 اللَّهُ، لَا لِخَلْقٍ وَالشَّيْطَانِ
 نِعَمَ الرَّفِيقِ لَطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي
 تُفْضِي — إِلَى الْحَيَرَاتِ وَالْإِحْسَانِ





شرح المنظومة

قال الناظم - رَحِمَهُ اللهُ -:

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى
وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

يَبِّنُ النَّاظِمُ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ مَدَارِجَ وَمَقَامَاتِ السَّعْدَاءِ، أُولَٰهَا: أَنْ يَجْتَهِدَ الْعَبْدُ فِي التَّرْقِي فِي مَنَازِلِ الْإِيمَانِ وَدَرَجَاتِ الْعِبَادِيَّةِ؛ كَمَا يَجْتَهِدُ فِي الْحَذَرِ مِنَ التَّدْلِي فِي مَوَاضِعِ السَّخَطِ وَأَسْبَابِ الْعَذَابِ.

(سَعِدَ) فَالسَّعِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْعَى فِي التَّرْقِي فِي مَنَازِلِ الْإِيمَانِ وَدَرَجَاتِ الْعِبَادِيَّةِ؛ كَمَا يَجْتَهِدُ فِي الْحَذَرِ مِنَ (سَبُلِ الرَّدَى) وَالَّتِي هِيَ مَوَاضِعُ السَّخَطِ وَأَسْبَابِ الْعَذَابِ.

هَؤُلَاءِ السَّعْدَاءُ وَضَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ طَرِيقَ لَيْسِيرٍ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ الْوَصُولِ لِلْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ لَنِيْلٍ مَرْضِيٍّ الرَّحْمَنِ، فَأَخَذُوا الْقَرَارَ بِتَجَنُّبِ سَبُلِ الرَّدَى، وَسَبُلِ الرَّدَى تَشْمَلُ: الْكُفْرَ، وَالنِّفَاقَ، وَالْبِدْعَةَ، وَالْمَعْصِيَةَ، وَسُوءَ الْخُلُقِ، وَالْغَفْلَةَ؛ وَالْحَذَرُ مِنْهَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأَمْرَيْنِ:

الأول: معرفة خطرها وضررها في الدنيا والآخرة.

والثاني: الاجتهاد في تجنبها، وتجنب أسبابها أو الاقتراب منها، جاهدوا في تجنبها مستعينين بالله، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٥).

فدل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله - عَزَّجَلَّ - ويسر - له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوَعِي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

وأيضا لتأمل قوله (سُبُل الردى) سبل وليس سبيل، أي أن الردى ليس له سبيل واحد وإنما هي سبل كثيرة، قال الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٦).

(١٥) [سورة العنكبوت: (٦٩)].

(١٦) [سورة الأنعام: (١٥٣)].

وكما في الحديث عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: (خطَّ رسولُ الله -ﷺ- خطًّا بيده ثم قال: هذا سبيلُ الله مستقيماً، وخطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبلُ ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه) ^(١٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمته الله-: (فعلى كل مؤمن ألا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول -ﷺ-)، ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعاً لقوله، وعمله تبعاً لأمره، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستنير فهذا أصل أهل السنة) ^(١٨).

وقال سماحة الشيخ ابن باز -رحمته الله-: (أن صراط الله طريق واضح، يوصل من سلكه إلى الجنة والكرامة أما الطرق التي عن يمينه وشماله فهي البدع والشبهات والشهوات المحرمة التي يسلكها أكثر الخلق، فهي توصل من سلكها إلى النار، نعوذ بالله من ذلك).

فالواجب على كل مسلم أن يسلك الطريق السوي، وهو صراط الله الذي دل عليه كتاب الله وسنة الرسول -ﷺ-، وهو فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى

(١٧) [أخرجه أحمد (٤١٤٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٤)، والدارمي (٢٠٢)].

(١٨) [مجموع الفتاوى: (١٣ / ٦٢ - ٦٣)].

الله عنه ورسوله، عن إخلاص لله، وعن إيمان به ومحبة له، وعن موافقة لما شرعه
رسوله - ﷺ - هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله) (١٩).

طريق الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - طريق مستقيم واضح لا اعوجاج فيه، وقد بين
الحق - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - معالم الطريق للناس، وأوضح تفاصيله النبي - ﷺ -، وحذر
الناس من سبل الشياطين.

فسبيل الله وهو الدين القويم والطريق المستقيم، وسبل الشيطان يكون
بالإغواء والابتعاد عن صراط الله المستقيم، وهي طرق متشعبة متفرقة كلها تبعد
عن الحق، لذا يجب المؤمن الاجتهاد والسعي على الثبات على الدين ويتجنب كل ما
ينقص من إيمانه، وكلما كان العبد أكمل إيماناً وتوحيداً كلما كان أبعد عن كل شهوة
وشبهة.

وإن الهداية إلى الصراط المستقيم باستبانة معالمه، ومعرفة مناراته، والعلم
بحدوده، والبُعد عن نواقصه ونواقضه أساسٌ للسعادة والفلاح، والفوز والنجاح
في الدنيا والآخرة، وحاجة العباد إلى الهداية إلى هذا الصراط هي أشد الحاجات
وضرورتهم إلى معرفته والعلم به وتحقيقه أشد الضرورات.

فإن مَنْ مَنَّ الله عليه بدخول هذا الصراط العظيم، ومعرفته دين الله القويم أن
يعرف الله - جَلَّ جَلَالُهُ - نعمته عليه، وأن يشكره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عليها وأن يحقق

الشكر على وجهه الصحيح كما لا في العلم وتاماً في العمل، ومواظبة على طاعة الله - عز وجل -.

فأهل الإيمان يزلوا، يضعفوا، الإيمان يزيد وينقص عندهم، هم بشر، ليسوا بملائكة، لهم شهوات، لهم رغبات، نفسهم أمارة بالسوء مثل غيرهم من البشر، ولكن لا ينقادون وراء شهواتهم، ولا ينكبون وراء ما تطلبه أنفسهم، يجاهدون أنفسهم، يجاهدون الشيطان، وإذا وقعوا سرعان ما يقفوا ويعودوا إلى ربهم بالتوبة والانابة، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢٠)، ويجتهدوا في سلوك طريق الاستقامة، ليصلوا إلى منازل الرضوان.

المنازل التي ينال بها رضوان الله، تشتمل على كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ليكونوا من السعداء في الدارين، سعادة الدنيا والآخرة.

ويا سعادة من كان منهجه التسليم لنصوص الكتاب والسنة قال الحافظ ابن رجب - رحمه الله -: (الذي يتعين على المسلم الاعتناء به: أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله - ﷺ - ثم يجتهد في فهم ذلك ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور

(٢٠) [سورة آل عمران: (١٣٥)].

العلمية وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما يُنهى عنه وتكون همته مصروفة إلى ذلك لا إلى غيره^(٢١).

يُعاني الناس ألوانًا من المشاكل، وصُنُوفًا من المتاعب؛ وذلك لأنهم تركوا الدين وراءهم ظهريًا، ونَحَّوه عن حياتهم الاجتماعية، ولو أنهم التزموا جانب الدين الحق، واحتكموا إلى ما يقتضيه المنطق السليم، لاستقامت لهم شؤونهم على وضع سويٍّ يتلاءم مع الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، ولتخلصوا من كل هذه المشاكل، وجميع هاتيك المتاعب التي تُثقل كاهلهم اليوم.

لقد انحرف أكثر الناس في عصرنا وعالمنا عن الصراط المستقيم بعامل الهوى، فجانبوا الحق، وأعرضوا عن دين الله، دين الإسلام، فاصطلحت عليهم من جرّاء ذلك المشاكل والمتاعب.

إن للشيطان مداخل على النفس خطيرة وبارعة، يريد بذلك أن يُهلك المسلم، فيَعِمِد إلى الهوى فيلبسه لباسًا مُزركشًا خداعًا لا يُصادم المعاني الدينية ولا يُعارضها في الظاهر، وقد تنطلي تلك الحيل على المسلم الضعيف، فينساق وراء دافع الهوى، فينساق إلى حتفه.

لذا بقدر حرص المسلم على السير على الكتاب والسنة يقل التناقض والتضاد عنده وتحصل له الطمأنينة واليقين وتبتعد عنه الوسوس والشبهات.

(٢١) [سورة آل عمران: (١٣٥)].

فالعبودية قضية كلية تهيمن على حياة المسلم فهو حين يسعى في الأرض لطلب الرزق يعبد الله لأن ربه يأمره بذلك في قوله - عز وجل - : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٢٢)، وطريق الوصول إلى هذه المرتبة العظيمة بأن يستحضر - العبد ذكر ربه وهو يعمل في شتى مجالات الحياة فيسأل نفسه هل هو في الموضع الذي يرضي ربه عنه أم يسخطه عليه؟

فإذا كان في موضع الرضى فليحمد الله وليتزود من الخير، وإن كان على غير ذلك فليستغفر الله وليتب إليه كما هو حال عباد الله المتقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(٢٣).

أن كل إنسان عابد بفطرته. أي أنه مجبول على العبادة؛ فإما أن يكون عابداً لله وحده بلا شريك، وإما أن يكون عابداً لشيء آخر غير الله، معه أو من دونه، كلاهما سواء!

وهذه العبادة هي التي يسميها الله - جل وعلا - عبادة الشيطان لأنه استجابة لدعوة الشيطان: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

(٢٢) [سورة الملك: (١٥)].

(٢٣) [سورة آل عمران: (١٣٥ - ١٣٦)].

مُبِينٌ ﴿٢٤﴾، ولا يستوي حياة الإنسان عابداً لله وعابداً للشيطان: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾.

فالشيطان يستدرج الإنسان في محاولة لإبعاده عن عبادة الله فتارة ينجح في إبعاده إبعاداً مؤقتاً كما يقع في المعصية (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ...) ﴿٢٦﴾. وتارة يبعده إبعاداً كاملاً ينقطع فيه ما بين العبد وبين ربه فيشرك أو يكفر أو يلحد، وعبادة الشيطان هذه تارة تكون عبادة للهوى فهذا العبد الذي يأتمر بأمر هواه فما رآه حسناً فعله وما رآه قبيحاً تركه فهو مطيع لهوى نفسه يتبع ما تدعو إليه فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه.

وتارة تكون عبادة للدرهم والدينار، وهكذا كل من تعلق قلبه بشيء غير الله - عَزَّوَجَلَّ - من أهواء نفسه فإن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط فهو عبد ما يهواه رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته.

ثم بقدر ما تستعبده هذه الشهوات أو بعضها بقدر ما تضعف عبوديته لربه - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فإن استحكمت عبوديته لتلك الشهوات والأهواء حتى صدته عن الدين بالكلية فهو مشرك كافر، وإن صدته تلك الأهواء والشهوات عن بعض ما

﴿٢٤﴾ [سورة يس: (٦٠)].

﴿٢٥﴾ [سورة الملك: (٢٢)].

﴿٢٦﴾ [أخرجه البخاري: (٢٤٧٥)، ومسلم: (٥٧)].

يجب عليه أو زينت له فعل بعض ما يحرم عليه مما لا يخرج فاعله من الدين فقد نقص من عبوديته لربه وإيمانه به بقدر ما صُد عنه.

نسأل الله تعالى أن يمن علينا بكمال العبودية له - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وأن يجعلنا من عباده المخلصين وأوليائه المقربين، إنه سميع قريب مجيب.



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

فَهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ
مُتَشَرِّعِينَ بِشَرْعِ الْإِيمَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام الثاني من مقامات السعادة: إخلاص العمل لله، وإسلام الوجه له ابتغاء مرضاته، وبالإخلاص يكون الخلاص.

والمقام الثالث: مقام التمسك بشرع الله، واتباع رسول الله، فبقدر الاتباع يظهر الصدق في المحبة.

(فَهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ) وذلك في كل حركاتهم وأفعالهم من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح أو أقوال اللسان أتوا به مخلصين لله - جَلَّ وَعَلَا -، والمشي - هنا يشمل المشي الحسي للمساجد، وللدروس العلمية والحج وغيرها مما يمشى إليه، وأيضا يراد بالمشي، المشي المعنوي الذي هو السير في طاعة الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فهم في كلٍّ مشي - لهم مخلصين لله ويتغنون به وجه الله مخلصين لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، متبعين لرسول الله - ﷺ -.

فرض الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - على العبد هو المقصود الأول من العبادة والعمل، ولا يبلغ العبد درجة الرضا عنه إلا بما كان خالصا له - عَزَّ وَجَلَّ - من الأعمال موافقا

لسنة النبي - ﷺ -، فإن أتى بما ينقضه هذان الأمران أو أحدهما فعمله مردود وجهده هباء منثور.

مما يدل على أهمية الإخلاص والمتابعة للذين هما شرطاً لقبول العبادة ما يلي:
 أن الله أمر بإخلاص العبادة له، قال - عز وجل -: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٢٧).

أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - اختص نفسه بالتشريع، فهو حقه وحده، ومن تعبد الله بغير ما شرع فقد شارك الله عز وجل في تشريعه، قال - عز وجل -: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (٢٨).

أن الله أنكر على من يشرع من عند نفسه، قال - جل جلاله -: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٢٩).

أن الله أكمل لنا الدين، ورضيه لنا، قال - جل وعلا -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٣٠).

(٢٧) [سورة الأعراف: (٢٩)].

(٢٨) [سورة الشورى: (١٣)].

(٢٩) [سورة الشورى: (٢١)].

(٣٠) [سورة المائدة: (٣)].

وقال - ﷺ -: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (٣١).

وهذا الحديث قيل: إنه ميزان للأعمال الباطنة، فكل عمل كبر أو صغر، منوطٌ بنية الإنسان، فليُنظر الإنسان لنيَّته، فالتوايا مكشوفةٌ عند الله تعالى؛ لذلك قد يعمل الإنسان عملاً عظيماً بأعين الناس؛ كبناء مسجد، أو دعوة إلى الله، وهو مُراءٍ ضعيف الإخلاص، فلا قيمة لعمله عند الله، فكم من عمل عظيم حَقَّرَته النية! وكم من عمل حقير عَظَّمَتِهُ النية، ورُبَّ درهم سبق ألف درهم!

فالإخلاص ضده الشرك، المتابعة ضدها البدعة، فالإخلاص هو صفاء الأمر عن الشوائب التي يمكن أن تشوبه، فهو مأخوذٌ من الخلوص وهو الصفاء والنقاء، فالله - جَلَّ جَلَالُهُ - لا يقبل من العمل إلا الخالص، أي إلا الصافي النقي الذي لم يرد به إلا وجه الله، فهذا الذي يقبله الله.

كما قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (هو أفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة أن تقصده وحده لا شريك له) (٣٢).

والشرك في الإرادات والنيات بحر لا ساحل له، قلٌّ من ينجو منه، لذلك خاف الرسول - ﷺ - على أمته منه، خاف على صحابته وهم أكمل الناس بعد الأنبياء!

(٣١) [أخرجه البخاري: (١)].

(٣٢) [@].

فإذا أرد العبد الإخلاص والخلاص من النار فعليك بأمرين:

الأول: تعظيمه - جَلَّ جَلَالُهُ - في القلوب، وإجلاله في النفوس، والتعريف على آلائه وأفضاله، وقدره حق قدره، هو - جَلَّ وَعَلَا - زاد العابدين، وقوة المؤمنين، وسلوى الصابرين، وهو سياج المتقين.

حيث قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ - مبيناً شيئاً من آثار هذه الذنوب على القلب وشيئاً من عقوباتها: (ومن أعظم عقوباتها: أنها تُضعف في القلب تعظيم الرب - جَلَّ جَلَالُهُ -، وتُضعف وقاره في قلب العبد ولا بد شاء أم أبى إذ لو تمكن وقارُ الله وعظمته في قلبه لما تجرأ على معاصيه وربما اغتر المغتر وقال: إنما يحملني على المعاصي حُسن الرجاء وطمعي في عفوهِ، لا ضعف عظمته في قلبي!

قال: وهذا من مغالطة النفس! فإن عظمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في قلب العبد تقتضي - تعظيمَ حرَماته وتعظيمَ حرَماته يحول بينه وبين الذنوب والمتجرأ على معاصيه ما قدر الله حق قدره وكيف يُقدِّره حق قدره أو يعظِّمه؟ أو يُكَبِّره؟ ويرجو وقاره ويُجِلُّه مَنْ يهون عليه أمره ونهيه؟! هذا من أحمل المحال، وأبين الباطل وكفى بالعاصي عقوبةً أن يضمحل من قلبه تعظيم الله - جَلَّ جَلَالُهُ - وتعظيم حرَماته ويهون عليه حقه) (٣٣).

والثاني: إخفاء الأعمال الصالحة، فالمخلص ليس من يظهر التنسك أمام الناس ثم يسيء فيما بينه وبين الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، بل هو قَوَّام على نفسه يحاسبها؛ كأنه أبداً

يرى الله - عَزَّوَجَلَّ -، فهو مراقب له - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - في سره وعلايته، لا روغان في استقامته، وهذه من أعظم قرباته، وقد قال بعضهم: (أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات) ^(٣٤).

فالمخلص يسعى إلى إخفاء أعماله الصالحة قدر الإمكان، يتعد عن الحديث عنها أو اظهارها، يخاف ويخشى من الشهرة، أو حب المدح عليها، أو يسعى للشهرة، وفي ذلك يقول ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس؛ إلا كما يجتمع الماء والنار، والضرب والحوت، فإذا حدثتْك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح؛ سهّل عليك الإخلاص) ^(٣٥).

وقال ابن قتيبة - رَحِمَهُ اللَّهُ - في وصف حالة صدر هذه الأمة وسلفها في طلب العلم: (كان طالب العلم فيما مضى - يسمع ليعلم ويعلم ليعمل ويتفقه في دين الله ليتنفع وينفع فقد صار طالب العلم الآن يسمع ليجمع ويجمع ليذكر ويحفظ ليغالب ويفخر) ^(٣٦).

(٣٤) [إحياء علوم الدين: (٤ / ٣٩٧)].

(٣٥) [@].

(٣٦) [.]

الإخلاص ينجي من العذاب العظيم يوم الدين، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) (٣٧).

قال النووي - رحمته الله -: (قوله - ﷺ - في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال، وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً) (٣٨).

(٣٧) [أخرجه مسلم: (١٩٠٥)].

(٣٨) [شرح النووي على مسلم: (٥٠ / ١٣)].

فالله - جَلَّ جَلَالُهُ - غني عن عبادته، ولا يقبل منهم الشرك في القول أو العمل، ولا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه سبحانه.

فالمؤمن شخصية فذة إيمانه بما عند ربّه من ثواب وعطاء، أغناه عن مديح الناس والثناء عليهم، فكلما ازداد إيمانك ازداد إخلاصك فأتساع رؤية المؤمن حملته على الإخلاص لله - عَزَّوَجَلَّ -، والزهد فيما عند الناس.

فيُكافئه الله بالقبول، وبمن يتكلّم ويشيد بعمله وإنجازه، فينال ثواب الله - جَلَّ وَعَلَا - وثناء الناس له، وهو لم يتكلم ولم يطلب منهم مدحه، لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء؛ فعن أبي ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قيل لرسول الله - ﷺ -: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟! قال: (ذَلِكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) ^(٣٩).

قال السيوطي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (يعني ليس مرئياً في عمله لكن يعطيه الله تعالى ثوابين ثواب في الدنيا بحمد الناس، وفي الآخرة بما أعد له وفيه دليل قبول ذلك العمل لأن البشارة لا يكون الا للمقبول) ^(٤٠).

(٣٩) [أخرجه ابن ماجه: (٤٢٢٥)].

(٤٠) [شرح سنن ابن ماجه للسيوطي: (ص: ٣١١)].

وهناك تحذير صريح من رسول الله - ﷺ - لطالب العلم الذي لا يريد بعلمه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، يقول - ﷺ - : (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ ^(٤١) يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(٤٢).

الأصل في جميع العبادات أن تكون جميعها خالصة لله - جَلَّ جَلَالُهُ -، فهذا شرط في جميع الأعمال الصالحة؛ فمن ابتغى بالعمل وجه الناس كان شرا ووبالا عليه في الآخرة.

فمن تعلم علماً من العلم النافع الذي ينتفع به الخلق سواء كانت علوماً شرعية أو غير ذلك؛ مما فيه منفعة للخلق يريد به وجه ربه - جَلَّ جَلَالُهُ -، بحيث لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا فتعلم العلم ليصيب به متاع الدنيا وعرضها وزينتها، أو سمعة أو رياء أو ظهوراً أو لمنصب أو منزلة أو مال، فإن كان حاله ذلك، فذلك لن ينفعه علمه يوم القيامة بل يحبطه الله.

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (أقرب الوسائل إلى الله: ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال

(٤١) [أخرجه أبو داود: (٣٦٦٤)، وابن ماجه: (٢٥٢)، وأحمد: (٨٤٥٧)].

(٤٢) [(عرف الجنة): بفتح عين مهملة وسكون راء مهملة الرائحة مبالغة في تحريم الجنة لأن من لم يجد ربح الشيء لا يتناوله قطعاً وهذا محمول على أنه يستحق أنه لا يدخل أولاً ثم أمره إلى الله تعالى كأمر أصحاب الذنوب كلهم إذا مات على الإيمان].

والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها) (٤٣).

قال العلامة السعدي - رَحِمَهُ اللهُ -: (إذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انتفع بإرشادهم، واهتدَى بأقوالهم وأفعالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجواهر عمره، وأن يعده ليوم فقره وفاقته) (٤٤).

لذا علينا معاشر طلاب العلم العمل على نشر - السنة والدفاع عنها وإحيائها، لأن كان القرآن الكريم المصدر الأول لتكوين الشخصية الإسلامية فكرًا وثقافة ومعتقدات فإن سنة رسول الله - ﷺ - تمثل التطبيق العملي لما أنزله الله - جَلَّ جَلَالُهُ - في القرآن؛ وذلك لأن مهمة رسول الله - ﷺ - الأساسية هي: التبليغ، والبيان.

وتبليغ القرآن يكون بتلاوته على الناس، ويكون البيان بالقول إن لزم الأمر، ويكون بالتطبيق العملي للأوامر التي تحتاج إلى التطبيق العملي، كأركان الإسلام الخمسة، وغيرها من شرائع الإسلام.

ومن هنا تأتي أهمية السنة النبوية، فإن المسلم لا يستغني بالقرآن عن السنة النبوية؛ لأن القرآن اشتمل على مبهمات لا بد من بيانها، واشتمل على مجملات لا بد

(٤٣) [٤].

(٤٤) [الفتاوى السعدية (١ / ١١٣)].

من تفصيلها، وتضمن عمومات جاء تخصيصها في السنة النبوية، وجاءت قضايا على إطلاقها، وجاءت السنة النبوية بتقييدها.



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ
بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدِّيَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام الرابع والخامس: أن يسير العبد إلى الله بجناحي الرجاء والخوف، فالرجاء يدفعه للسير ويحثه، والخوف يحوطه ويمنعه عن الخروج عن جادة السبيل. يقول - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - واصفًا أنبيائه ورسوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٤٥)، فهم يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها.

لذلك فالقلب السائر إلى الله بمنزلة الطائر، رأسه المحبة، وجناحاه الخوف والرجاء، وهل يستطيع أن يطير الطائر بجناح واحد؟ لا بد من الرجاء والخوف معًا.

وفي الحديث عن أنس - رضي الله عنه -: (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَمُودُكَ؟»، قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ

(٤٥) [سورة الأنبياء: (٩٠)].

ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أُعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ (٤٦).

وفي الحديث: بيان فضل الخوف والرجاء من الله تعالى، وأنها سبب للنجاة من النار ودخول الجنة؛ لأنها يحثان الإنسان على حسن العمل مع حسن الاعتقاد في الله - جَلَّ وَعَلَا -.

فعلى المؤمن أن يحسن الظن بالله - جَلَّ وَعَلَا -، ومع ذلك لا يأمن مكرهه، بل يسعى في الجمع بين الاثنين حتى يلقيه - عَزَّ وَجَلَّ -، وألا يغره عمله، بل ينبغي الخوف من عقابه - جَلَّ وَعَلَا - مع رجاء ثوابه وعفوه وفضله.

فإن فعلوا حسنةً جمعوا بين الخوف والرجاء، فيرجون قبولها ويخافون ردّها، وإن عملوا سيئةً، خافوا من عقابها، ورجوا مغفرتها بفضل الله، فهم بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء منزلتان عظيمتان من منازل السائرين إلى الله والدار الآخرة، يعمل بهما السائرون إلى الله، في كل سيرهم، وفي كل طاعاتهم وفي جميع عباداتهم، فهم يجمعون فيها بين الخوف والرجاء قال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ

كَانَ مَحْذُورًا^(٤٧)، وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.

نقطة مهمة أود التنبيه عليها:

أغلب الناس في هذا الزمن غلبوا جانب الرجاء على الخوف، فأمنوا من مكر الله والعياذ بالله، والأمن من مكر الله كبيرة من كبائر الذنوب، بل عظيمة من العظائم، هذا الرجاء مذموم، لأنه يقود إلى التفريط والافراط، والتهادي في معاصي الله وهو يرجو رحمة الله، وأي تناقض هذا؟

والمكر من صفات الله الفعلية، قال - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ^(٤٨)﴾، قال - جَلَّ جَلَالُهُ -: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ^(٤٩)﴾.

(٤٧) [سورة الإسراء: (٥٧)].

(٤٨) [سورة آل عمران: (٥٤)].

(٤٩) [سورة الأنفال: (٣٠)].

قال الفراء - رَحِمَهُ اللهُ -: (والمكرُّ من الله استدراجٌ، لا على مكرِ المخلوقين) ^(٥٠)،
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: (ومكرُّه أن يُعاقبه على الذنب لكن من
حيث لا يشعر) ^(٥١).

فمن علامات الأمن من مكر الله إذن: الإصرار على المعاصي مع استدراج الله
بالنعم، قال - ﷺ -: (إذا رأى الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يُحِبُّ، فإنما
هو استدراجٌ، ثم تلا رسول الله - ﷺ -: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ^(٥٢)) ^(٥٣).

ومعنى الحديث: أنك إذا رأيت الله - جَلَّ وَعَلَا - يعطي العبد من النعم ويزيده
منها، وهذا العبد لا يزال مقيماً على معاصيه، فاعلم أن ذلك استدراج من الله -
عَزَّجَلَّ - لذلك العبد الذي اغتر بتلك النعم، وظن أن الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - راضٍ عنه.

فلما أعرضوا عما أنذرهم ووعظهم به الرسل، وتركوا الاهتداء به حتى نسوه
أو جعلوه كالمُنْسِي - في عدم الاعتبار والاتعاظ به لإصرارهم على كفرهم، وجودهم
على تقليد من قبلهم، بلوناهم بالحسنات بما فتحنا عليهم من أبواب كل شيء من
أنواع سعة الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام والأمن على الأنفس والأموال.

[٥٠] @.

[٥١] @.

[٥٢] [سورة الأنعام: (٤٤)].

[٥٣] [رواه الإمام أحمد (١٧٣١١)، وحسنه الحافظ العراقي].

أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم أو حال كونهم مبعوتين إذ فجأهم على غرة من غير سبق أمانة ولا إمهال للاستعداد أو للهرب فإذا هم مبلسون، أي متحسرون يأسون من النجاة أو هالكون منقطعة حججهم.

ولقد دلّ كتابُ الله - جَلَّ وَعَلَا - وسُنَّةُ رسوله - ﷺ - وإجماع السلف على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه يُنافي كمال التوحيد، فالأمن من مكر الله من سمات المنافقين، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾، قال قتادة - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (بَغَتِ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَلَوَتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ فَلَا تَعْتَرُّوا بِاللَّهِ إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) (١٠٠).

وكيف هي حال الناس اليوم مع الدنيا، يتقلبون بنعم الله ليلاً ونهاراً ويعصونه سرّاً وجهاراً، إن القلوب لاهية، قاسية، وعن الله غافلة، آمنة من مكر الله، وكأنهم عندما يقرؤون الآيات التي تتكلم عن ماذا فعل الله بالأقوام السابقة من خسف وغرق وريح صرصر عاتية وكأنها هي خاصة بالأمم السابقة فقط!

عجيب ابن آدم، مخلوق من طين، ويبارز الخالق بالذنوب والمعاصي، على أرضه، وفي ملكه، وعلى مسمع منه ومرأى!

(٥٤) [سورة الأعراف: (٩٧ - ٩٩)].

(٥٥) [تفسير ابن أبي حاتم (٤ / ١٢٩١)].

وأي جبروت هذا، جبار الإنسان، جبار من يعصي الله وأمن من مكر الله، هذا بلا قلب والعياذ بالله، ما أكثرهم، ما أكثرهم حولنا، ووصل الأمر إلى المجاهرة بالمعاصي بلا حياء لا من الخالق ولا من المخلوقين.

الأمن من مكر الله ذنب عظيم والمجاهرة بها أعظم وأعظم، قال - ﷺ - دائماً المجاهرين: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَاقِلٌ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ) ^(٥٦)، المجاهرة بالمعصية استخفاف بمن عصي وهو الله جل وعلا، استخفاف بحقه - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -.

من أراد أن يؤمنه الله في الآخرة فليخافه في الدنيا، فما كثرت الذنوب وما تمادى المتمادين في المعاصي إلا أنهم غلبوا جانب الرجاء على الخوف، فبعض الناس غارق بالذنوب والمعاصي، ويرى نفسه الصالح، المستقيم، وكأن الجنة بيده، وكأنه ضمنها!، يعمل القليل من الأعمال ويراهم أمثال الجبال، ويمن على الله بها والله المستعان.

إذاً: الخوف هو من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب.

وبالمقابل، لا يقنط الإنسان من رحمة الله، فلا يغلب جانب الخوف أيضاً فيقنط، وييأس، هذا أيضاً ذنب عظيم وكبيرة من الكبائر، القنوط من رحمة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، واليأس منه وأن الله يغفر له أو لا يرحمه، هذا يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم.

(٥٦) [أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠)].

فالمؤمن لا يغلب جانب على جانب فيهلك، يسير بين الرجاء والخوف، قال الحسن البصري - رَحِمَهُ اللهُ -: (المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن) ^(٥٧).

وذكر ابن الجوزي - عَزَّوَجَلَّ - قصَّةَ عجيبةٍ تنمُّ عن عُمقِ الخوفِ من الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - والأولى أن تُكْتَبَ بهاء العيون بدلَ ماءِ الذهب، تأملُوا معي هذا الحوار، وأعرِ فؤادَكَ وقلبك وخشيتك للحيِّ القيوم:

(قال نافع: خرجت مع ابنِ عمر في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحابٌ له، فوضعوا سُفرةً، فمرَّ بهم راعٍ، فقال له عبدالله: هلمَّ يا راعي، فأصب من هذه السُّفرة، فقال: إني صائم، فقال له عبدالله: في مثلِ هذا اليومِ الشَّدِيدِ حرُّه، وأنت في هذه الشُّعابِ في آثارِ هذه الغنم، وبين الجبال ترعى هذه الغنم، وأنت صائم! فقال الراعي: أبادر أيامي الخالية، فعجب ابنُ عمر، وقال: هل لك أن تبيعنا شاةً من غنمك نجتزرها، ونطعمك من لحمها ما تفرطُ عليه، ونعطيك ثمنها؟

قال: إنَّها ليست لي، إنَّها لمولاي، قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قُلتَ: أكلها الذئب؟ فمضى - الرَّاعي وهو رافعٌ إصبعه إلى السماء، وهو يقول: فأين الله؟ قال: فلم يزل ابنُ عمر يقول: قال الراعي: فأين الله، فما عدا أن قدم المدينة، فبعث إلى سيده فاشترى منه الرَّاعي والغنم، فأعتق الرَّاعي، ووهبَ له الغنم) ^(٥٨).

[٥٧] @.

[٥٨] [صفة الصفوة: (٢ / ١٨٨)].

وهنا درسٌ عظيمٌ الأثر لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وهو
 تنمية الصِّلة بالله وخشيته في الغيب والشَّهادة، وغرس رُوح المراقبة في النفوس، والله
 در أبو العتاهية حين قال:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل	خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى-	ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تتابع	ذنوبٌ على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى-	ويأذن في توباتنا فنتوب



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

وَهُمُ الَّذِينَ مَلَإُوا إِلَهُ قُلُوبِهِمْ
بِوَدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام السادس من مقامات السائرين إلى الله - جَلَّ جَلَالُهُ -: أن تمتلئ قلوبهم بحبه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حبًا يدفعهم؛ للتقرب إليه بكل ما يحب ويرضى، والبعد عن كل ما يسخط ويأبى.

منزلة المحبة هي أصل المنازل في السير إلى الله، هي الأصل، فأبي عبادة بلا محبة لا تقبل ولا تنفع بل تضر، بالمحبة يتنافس المتنافسون إلى الله، بها يتفاوت الناس في درجات الجنة.

الطريق إلى حب الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يكون بأمرين:

الأول: ترك التعلق بغير الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

الثاني: معرفة الله، فكلما ازدادت المعرفة بالله كان التعلق بالله أكثر.

فالمحبة هي ميل القلب إلى المحبوب، ومحبة الله هي أساس الإيمان وأصل العبادة، قال - جَلَّ جَلَالُهُ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّائِمًا ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾، فَيَنِّ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - صفة أهل الإيمان الكُمَّل أنهم يحبهم الله وهم يحبونه، ثم أثمر حبُّهم هذا لله أن صاروا يحبون إخوانهم المؤمنين في الله.

وهذا حال المؤمن الذي يحب الله جل وعلا، إذا أحب المخلوقين فمحبته تابعة لمحبة الله، فحبه للرسول - ﷺ -، وحبه للمؤمنين، وحبه للطاعات والأماكن والأزمنة التي يحبها الله هو في الحقيقة حب لله تعالى، وهو من كمال محبة الله - جَلَّ وَعَلَا -، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ﴿٦٠﴾، فالمؤمنون يُحبون الله أعظم حبًّا؛ حب العباد، حب مع ذل وانقياد وخضوع.

فحلاوة الإيمان مبنية على المحبة: كما جاء في حديث أنسٍ - رضي الله عنه - مرفوعاً، قال النبي - ﷺ -: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ) ﴿٦١﴾، حب الله - جَلَّ وَعَلَا - هو حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وقرّة العيون، وأعلى نعيم الدنيا.

فعلى المؤمن يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله، فيحب الأعمال الصالحة، لأنها سبب في نيل محبة الله، ويبغض من الأعمال ما يبغضه الله، ويعادي أعداء الله

(٥٩) [سورة المائدة: (٥٤)].

(٦٠) [سورة البقرة: (١٦٥)].

(٦١) [رواه البخاري: (٦٩٤١)].

بقدر بغض الله لهم، فليست في قلبه محبة ولا عداوة إلا وهي تابعة لمحبة الله وبغضه، ولن يذوق كائن ما كان طعم الإيمان إلا إذا قدم محبة الله على محبة الخاصة.

قال النووي - رَحِمَهُ اللهُ -: (هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، قال العلماء رحمهم الله: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضا الله عز وجل ورسوله - ﷺ -، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبدربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك محبة الله عز وجل ورسوله - ﷺ -) (٦٢).

قال سَمَاحَةُ الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ ابْنِ عَثِيمِينَ - رَحِمَهُ اللهُ -: (حلاوة الإيمان ليست حلاوة سكر ولا عسل، وإنما هي حلاوة أعظم من كل حلاوة، حلاوة يجدها الإنسان في قلبه، ولذة عظيمة لا يساويها شيء، يجد انشراحاً في صدره، رغبة في الخير، حباً لأهل الخير، حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حُرِمَها) (٦٣).

محبة الله - جَلَّ وَعَلَا - هي الغاية التي يتنافس لأجلها الصالحون والمحسنون، لينالوا القرب من ربهم، والفوز بمرضاته، لقد صرح الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أنه يحبُّ أصنافاً من عباده، أحبهم لأنهم اتصفوا بصفات يُحِبُّها هو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(٦٤)

(٦٢) [.]

(٦٣) [.]

(٦٤) [سورة البقرة: (١٩٥)].

وإذا أحب العبد ربه وأطاعه: حفظه الله ووفقه وأعانه واستجاب دعاءه،
 رسم الرسول - ﷺ - طريق الوصول إلى محبة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عن طريق فعل
 الفرائض والإكثار من النوافل، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:
 قال رسول - ﷺ - : (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ
 عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى
 أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي
 يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا
 تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) (٦٥).

الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده كثيرة، قال شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَأَمَّا
 الْأَعْمَالُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فَكَثِيرَةٌ
 مَعْرُوفَةٌ) (٦٦).

ونذكر بعضاً منها على سبيل الإيجاز:

الأول: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به، قال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -
 : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٦٧)، وقال عبدالله

(٦٥) [أخرجه البخاري: (٦٥٠٢)].

(٦٦) [@].

(٦٧) [سورة ص: (٢٩)].

بن مسعود - رضي الله عنه - : (لا تثروه كثرة الدقل، ولا تهذوه كهذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة) ^(٦٨).

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال، باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا قال - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ^(٦٩).

الرابع: إثارة محابه على محابك، عند غلبة الهوى، فلا بد من إثارة ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويوالي فيه، ويعادي فيه.

الخامس: مطالعة القلب لأسماء الله الحسنى و صفاته، ومشاهدتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: انكسار القلب بين يديه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل) ^(٧٠).

(٦٨) [مصنف ابن أبي شيبة: (٨٧٣٣)].

(٦٩) [سورة الرعد: (٢٨)].

(٧٠) [@].

احرصوا على فعل الأعمال التي يحبها الله، تنافسوا عليها، فيا ليت أن الناس
تتنافس على فعل الصالحات كتنافسهم على الدنيا، فالدنيا كل ما فيها لا يساوي
جناح بعوضة، قال - ﷺ -: (إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ،
وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ) ^(٧١).



(٧١) [المستدرك على الصحيحين للحاكم: (٩٤)].

قال الناظم - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

وَهُمُ الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ
فِي السِّرِّ - وَالْإِعْلَانِ وَالْأَخْيَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام السابع من مقامات السير إلى الله والدار الآخرة: أن يكون لسان العبد رطباً بذكر الله تعالى لاهجاً به، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

فوصف الناظم - رَحْمَةُ اللَّهِ - السائرين إلى الله والدار الآخرة بأنهم يذكرونه كثيراً، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

فعن عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - قال: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَّائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ - ﷺ -: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) ^(٧٢).

لذا فذكر الله - رَحْمَةُ اللَّهِ -، قوت القلوب الذي متى فارقتها، صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة الديار التي إذا تعطلت عنه صارت خراباً، هو السلاح الذي يقاتل به قُطَاعُ الطريق، والماء الذي يطفأ به لهب الحريق، به تستدفع الآفات، وتستكشف الكربات، وتهون المصائب والشدائد والملمات.

(٧٢) [أخرجه الترمذي: (٣٣٧٥)].

وذكر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : أقوى عدة يقاتل بها الأعداء، يقول - عَزَّوَجَلَّ - :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧٣).

وذكر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كثيرًا علامة براءة قلب العبد من النفاق، يقول -

عَزَّوَجَلَّ - : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٧٤).

وذكر الله - عَزَّوَجَلَّ - سبب لانشرّاح الصدر وطمأنينة القلب، يقول -

جَلَّ وَعَلَا - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٧٥).

وذكر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فيه حياة القلوب، ومن غيره تموت القلوب، فعن أبي

موسى الأشعري - رحمته الله - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)^(٧٦).

فهذا أبلغ الأحاديث في بيان فضل الذكر؛ حيث جعل الذكر بمثابة الروح

للجسد، وقد سمى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كتابه العزيز روحًا وهو أعظم أنواع الذكر

فقال - جَلَّ وَعَلَا - : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾^(٧٧).

(٧٣) [سورة الأنفال: (٤٥)].

(٧٤) [سورة النساء: (١٤٢)].

(٧٥) [سورة الرعد: (٢٨)].

(٧٦) [أخرجه البخاري: (٦٤٠٧)].

(٧٧) [سورة الشورى: (٥٢)].

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ - عن الذكر: (أنه يُورث حياة القلب، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!)(٧٨).

فمن ابتغى النجاة من موت القلب، فليكثر من ذكر الله، ومن ابتغى النجاة من جفاف القلب وقسوته، فليكثر من ذكر الله؛ قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ -: (إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى، وذكر حماد بن زيد عن المعلّى بن زياد أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بالذكر)(٧٩).

وهذا؛ لأن القلب كلما اشتدّت به الغفلة، اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

فالتفريط في جنب الله - جَلَّ وَعَلَا - اليوم هو حال الأمة، لقد نسيت الدار الآخرة والجزاء والحساب، وأصبح المسلمون وأضحوا وأمسوا وباتوا لا يفكرون إلا في الدنيا وشهواتها، لقد أغوتهم وأنستهم ذكر الله.

عن عمرو بن عوف - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجَزَيْتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - هُوَ صَالِحَ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَرَ

(٧٨) [الوابل الصيب: (@)].

(٧٩) [الوابل الصيب: (@)].

عَلَيْهِمُ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضَرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِهَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ -، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الْفَجْرَ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْهُمْ، وَقَالَ: أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِبَنِي-؟، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ^(٨٠).

هذا وهم كانوا في فاقة شديدة، وحاجة ماسة لا يملكون من متاع الدنيا إلا ما يسد الرمق، ويستر العورة، وسقف يؤويهم فما هو حالنا نحن؟

وما الدنيا وإن كثرت وطابت بها اللذات إلا كالسراب يمر نعيمها بعد التذاذذ ويمضي - ذاهباً مر السحاب

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ^(٨١).

قال ابن باز - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (الآية على ظاهرها، ما تحتاج تفسير، واضحة وَمَنْ يَعِشْ من يغفل، ويعرض عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يقبض له الشيطان - نسأل الله العافية - من غفل عن

(٨٠) [أخرجه البخاري: (٣١٥٨)].

(٨١) [سورة الزخرف: (٣٦ - ٣٨)].

ذكر الله، وعن قراءة القرآن، وعن طاعة الله من الصلوات، وغيرها؛ فيض الله له الشياطين حتى تصده عن الحق، وحتى تلهيه في الباطل -نعوذ بالله- ومن قام بأمر الله، وأدى حق الله، واستعمل نفسه في ذكر الله، وطاعة الله؛ عافاه الله من الشيطان، وحفظه من الشياطين، نسأل الله السلامة) (٨٢).

فأيها الناس تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم إلى ذلك سبيلا، واجعلوا همكم في آخرتكم التي ستنتقلون إليها، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، واعملوا وادخروا من الباقيات الصالحات، واحذروا من التسويف فهو من أبواب الشيطان ومن السيئات، ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٨٣).

قال العلامة الشنقيطي -رَحِمَهُ اللهُ-: (أقوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيء واحد، وهو الأعمال التي ترضي الله، سواء قلنا: إنها الصلوات الخمس، كما هو مروي عن جماعة من السلف: منهم ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو ميسرة، وعمرو بن شرحبيل، أو أنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعلى هذا القول جمهور العلماء، وجاءت دالة عليه أحاديث مرفوعة ... التحقيق أن الباقيات الصالحات لفظ عام، يشمل الصلوات الخمس، والكلمات الخمس المذكورة، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي

(٨٢) [فتاوى الجامع الكبير: (٢٣٨٧)].

(٨٣) [سورة الكهف: (٤٦)].

الله تعالى: لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية كزينة الحياة الدنيا، ولأنها أيضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى^(٨٤).

وفي شأن التحفيز على ذكر الله تعالى بها يقول النبي - ﷺ -: (خُذُوا جُسُكُمُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قَالَ: لَا بَلْ مِنَ النَّارِ، قُلْنَا: مَا جُسَّتْنَا مِنَ النَّارِ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَدَّمَاتٍ وَمُعَقَّبَاتٍ وَمُجَنَّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)^(٨٥).

وصف النبي - ﷺ - هذه المجموعة من الأذكار بعدة أوصاف جليلة فهي حماية لصاحبها من النار وتجعله في مقدمة الصالحين كما أنها تبقى بعد ان يتوقف العمل ويزول صاحبها.

بل كل العبادات تنقضي ويفرغ المسلم منها وذكر الله تعالى باق لا ينقضي ولا يفرغ منه: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾^(٨٦).

فالباقيات الصالحات تلبى في نفس المؤمن حب الجمال والتعمير، فمن منا لا يرغب في تزيين مسكنه بالورود والرياحين والأشجار ليدخل على قلبه السرور هناك

(٨٤) [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣) / ٢٨١].

(٨٥) [أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٣٠٣٤٨)].

(٨٦) [سورة مريم: (٧٦)].

غرس أبقي يدوم طويلا تضعه اليوم لتجد آثاره باقية لا تزول تجدها في الدنيا والآخرة.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - مر به وهو يغرس غرسًا فقال: (مَا تَصْنَعُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟) قَالَ: أَغْرِسُ غَرْسًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غَرْسٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ؟ قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ يُغْرِسُ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةً) (٨٧).

لهذه الكلمات تأثيرها على قلب المسلم فذكر الله تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله وينبغي أن يكون لها تأثير في حياته فلا تمر على لسانه دون تفكير أو تبصر ودون أن تهديه للتي هي أقوم.



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِكِ بِفِعْلِهِمْ
طَاعَاتِهِ وَالتَّزَكُّ لِلْعِصْيَانِ

قالت الشارحة - وفقتها الله -:

المقام الثامن: التقرب لله تعالى بفعل الطاعة وترك المعصية، وهو حقيقة التقوى، وأصل العبادة، وسر السعادة.

إن معرفة المسلم لأهمية التقوى وفضلها تتدافعه ولا شك إلى سلوك كل سبيل يوصله إلى تقوى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وهذا هو المقصود.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (المتقون الذي يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدي، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به) ^(٨٨).

وقال ابن رجب - رَحْمَةُ اللَّهِ -: (وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه) ^(٨٩).

(٨٨) [(@)].

(٨٩) [جامع العلوم والحكم: (@)].

وقال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ -: (التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعدته، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده) (٩٠).



قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

**فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَائِمُهُمْ
مَعَ رُؤْيَا التَّقْصِيرِ وَالنُّقْصَانِ**

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام التاسع من منازل السير إلى الله: أن يداوم العبد على فعل الفرائض التي هي أقرب ما يقربه من الله، ويواظب على فعل النوافل التي فيها زيادة القرب من الله؛ فيكون هذا ديدنه ودينه مع استشعار تقصيره وتفريطه، وافتقاره إلى عون معبوده وتوفيقه.

إن العبادة والاجتهاد فيها لا يَنْحَصِرَانِ في رمضان؛ فإن ربَّ رمضان هو رب سائر الشهور، ورمضان ما هو إلا محطة كبرى للتزود بالوقود الإيماني لسائر العام، فبعداً لمن يفصل رمضان عن سائر العام ويدعو إلى فصل رمضان عن سائر الشهور وشعار الجهال بعد رمضان قول الشاعر:

رمضان وليّ هاتِها يا ساقِي مُشْتَاقَةٌ تَسْعَى إلى مُشْتَاقِ

المداومة على الطاعات لها فضلٌ عظيم وخصائصٌ جليلة؛ منها:

الأولى: أنها من صفات المؤمنين الجادين: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ

دَائِمُونَ﴾^(٩١).

(٩١) [سورة المعارج: (٢٣)].

فهم مُداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها، وليسوا كَمَن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص، فالمدائمة على من صفات عباد الله الموفقين.

الثانية: هي وصية الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لخير خلقه وهم الأنبياء صلوات ربنا وسلامه عليهم؛ حيث جاء في القرآن قول عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٩٢).

فيستدل من هذه الآية الكريمة على أن العبادة واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، ويستدل بها على تخطئة مَنْ ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهل؛ فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت.

الثالثة: هي أحب الأعمال إلى الله تعالى: عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنها قالت: قال رسول الله - ﷺ -: (خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)

(٩٣)

(٩٢) [سورة مريم: (٣١)].

(٩٣) [أخرجه البخاري: (٤٣)، ومسلم: (٧٨٥)].

جعل الله تعالى الأعمال الصالحة متفاضلة، وأفضلها هي التي يستمر عليها صاحبها ويداوم عليها.

ومن العلماء من قال أنه يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل فإن الله يجازيك عليه، فاعمل ما بدا لك؛ فإن الله لا يمل من ثوابك حتى تمل من العمل، ومنهم من قال أن هذا لا يستلزم ثبوت الملل لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

فالمداومة على الطاعات وقاية من الغفلة التي تقود إلى الهلاك والخسران، والنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، وصدق من قال:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسه فاجعل

وهناك مُعينات وأسباب تُعين على المداومة على الطاعات؛ منها:

معرفة ثمراتها: فمعرفة ثمرات الشيء والإحاطة بفوائده تُعين على الثبات عليه والتمسك به؛ كما قال الخضر - لموسى عليهما السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٩٤).

الخوف من سوء الخاتمة: قال - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾.

(٩٤) [سورة الكهف: (٦٨)].

(٩٥) [سورة المنافقون: (١٠ - ١١)].

قال ابن رجب - رَحِمَهُ اللهُ -: (وفي الجملة: فالخواتيم ميراثُ السوابق، فكل ذلك سبق في الكتابِ السابق، ومن هنا كان يشتدُّ خوف السلف من سوء الخاتمة، ومنهم مَنْ كان يَقلُّق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم؛ يقولون: بماذا يُحْتَم لنا؟ وقلوب المقرِّين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا؟ وكان سفيانُ الثوري رحمه الله يشتدُّ قلقه من السوابق والخواتيم، فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًّا، ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت، وكان مالك بن دينار رحمه الله يقوم طولَ ليله قابضًا على لحيته، ويقول: يا رب، قد علمت ساكنَ الجنة من ساكنِ النار، ففي أي الدارين منزلُ مالك؟) (٩٦).

البيئة الصالحة: فالإنسان ابن بيئته كما قيل.

الاقتصاد في العبادة: والمعنى عدمُ الإثقال على النفس بأعمال تؤدِّي إلى المشقة المفضية إلى السَّامة والملل من العبادة وتركها، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - سُئِل: (أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: أدومُّها وإن قلَّ) (٩٧).

الدعاء: فقد أثنى الله - جَلَّ وَعَلَا - على الراسخين في العلم بأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٩٨).



(٩٦) [جامع العلوم والحكم: (٥٠)].

(٩٧) [(@)].

(٩٨) [سورة آل عمران: (٨)].

قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمُكَارِهِ كُلِّهَا
شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام العاشر: هو مقام الصبر على ما تكره النفوس؛ وإنما تكره النفوس ما لا يلائمها، والصبر على المكاره هو حبس النفس عن كل ما لا يرضي الله.

(صبروا النفوس على المكاره كلها) لماذا؟ (شوقاً إلى ما فيه من إحسان) كأنه يقول لك: إذا أردت لنفسك مزيداً في الصبر وتمكناً منه فطالع آثار الصبر عليك، فهو لاء صبروا النفوس على المكاره كلها لأجل ماذا؟ (شوقاً) علموا قبل أن الصبر فيه عواقبه حسنة، شوقاً لرضا الله، شوقاً للجنة، الوصول للجنة يحتاج إلى صبر على الطاعات، والصبر على ترك المحرمات، والصبر على أقدار الله.

فلقد جعل الله - عَزَّجَلَّ - بحكمته الدنيا داراً متغيرة الأحوال، متبدلة المراحل والأطوار، فسرور يعقبه الحزن، ويسر يخلفه العسر، والسقم تتبعه العافية، واجتماع بعده الفرقة في الدنيا أو إلى الدار الآخرة، هكذا أرادها الله ابتلاء لعباده واختباراً، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٩٩).

وإذ إنها كذلك، فالحاجة فيها إلى الصبر ضرورة دنيوية ظاهرة، وفريضة شرعية لازمة.

الصبر هو الزاد، والقوة والعتاد، يحتاجه المريض في شكواه، والمبتلى في بلواه، والداعية إلى الله في دعوته، والمرأة في بيتها، والأب في أسرته، والمعلم في مدرسته، وطالب العلم في دراسته، والموظف في إدارته، والتاجر في تجارته، والعامل في خدمته.

الصبر نصف الإيمان كما في الحديث، فمن قل صبره قل إيمانه، وخير عيش أدركه السعداء، إنما أدركوه بالصبر.

الصبر سيد الأخلاق، وأساسها وعنوانها وقوامها، فالعفة صبر عن الشهوات المحرمات، والحلم صبر عن الانتقام عند الغضب، وسعة الصدر صبر عند الضجر، والقناعة صبر على الكفاف واليسير.. وهكذا بقية الأخلاق.

ما من الله على أحد بعطاء من رزق، أو غيره خيرًا وأوسع من الصبر؛ لأن الإنسان إذا كان صبورًا تحمّل كل شيء؛ إن أصابته الضر-اء صبر، وإن أعرض له الشيطان بفعل المحرم صبر، وإن خذله الشيطان عن ما أمر الله صبر، فإذا كان الإنسان قد منّ الله عليه بالصبر، فهذا خير ما يعطاه الإنسان، وأوسع ما يعطاه، ولذلك تجد الإنسان الصبور لو أُوذي من قبل الناس، لو سمع منهم ما يكره، لو حصل منهم اعتداء عليه، تجده هادئ البال، لا يتصلب، ولا يغضب؛ لأنه صابر على

ما ابتلاه الله به؛ فلذلك تجدد قلبه دائماً مطمئناً، ونفسه مستريحة، ولهذا قال رسول الله ﷺ - إذ قال: (وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) ^(١٠٠).

فالصبر ضياء، ينير الله به دروب الحائرين، ويهدي به صراطه المستقيم، والصبر عون على دوام الطاعة، ولزوم العبادة والاستقامة، الصبر عدة المسلم في مجاهدة النفس على ترك الذنوب والخطايا، الصبر عزاء المسلم عند نزول الكروب وحلول البلايا.

فلولا الصبر لغرق المهموم في همومه، ولضاق الحزين ذرعاً بأحزانه وغمومه. وإذا كانت الدنيا لا تنال إلا بالصبر، وهي لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فكيف بالجنة التي عرضها السموات والأرض، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

جمل الله - جَلَّ وَعَلَا - بالصبر المرسلين وأمر به خاتم النبيين: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ^(١٠١)، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ^(١٠٢)، ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ^(١٠٣).

(١٠٠) [أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)].

(١٠١) [سورة النحل: (١٢٧)].

(١٠٢) [سورة الأحقاف: (٣٥)].

(١٠٣) [سورة الطور: (٤٨)].

فأمر به المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾^(١٠٤)،
وأثنى على أهله، فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١٠٥).

قرن الله الصبر بالقيم العليا في الإسلام، قرنه بالتقوى فقال - جَلَّ جَلَالُهُ -:
﴿وَأِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١٠٦)، قرنه بالشكر وباليقين فقال -
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(١٠٧)، وقال - عَزَّ وَجَلَّ -:
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(١٠٨).

وشرط الصبر: أن يكون خالصاً لوجه الله، لقول الله - جَلَّ وَعَلَا - لنبيه - ﷺ -:
﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(١٠٩)، أن يكون في حينه وأوانه، لقول النبي - ﷺ -: ﴿إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ
أَوَّلِ صَدْمَةٍ﴾^(١١٠).

(١٠٤) [سورة آل عمران: (٢٠٠)].

(١٠٥) [سورة البقرة: (١٧٧)].

(١٠٦) [سورة آل عمران: (١٨٦)].

(١٠٧) [سورة السجدة: (٢٤)].

(١٠٨) [سورة لقمان: (٣١)].

(١٠٩) [سورة المدثر: (٧)].

(١١٠) [أخرجه البخاري: (٧١٥٤)].

والشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وكذلك الحزن من غير تسخط ولا جزع، وكذلك دمع العين، فقد بث يعقوب - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حزنه وشكواه إلى ربه، وبكى قائلاً: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١١١).

قال سماحة العلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (الصبر الذي فيه الثواب والأجر هو ما يحصل عند أول المصيبة من موت قريب أو مرض أو مفاجأة بشيء يضر الإنسان يصبر ويحتسب، فلا يجزع، ولا يتكلم بسوء، ولا يفعل ما لا ينبغي عند الصدمة الأولى، فيثاب على ذلك .. أما إذا فعل ما لا ينبغي ثم صبر بعد ذلك فهذا ما ينفع، الصبر لا بد منه، سوف يقع، سوف يتسلى بعد ذلك إذا طالت المدة كصبر البهائم هذا لا ينفع، الصبر الذي فيه الأجر العظيم عند الصدمة الأولى، عند أول ما تنزل به المصيبة من موت أو غيره يتحمل ولا يجزع ولا ينح ولا ينتف شعراً ولا يشق ثوباً، ولا يرفع صوته بالنياحة، هكذا يكون الصبر، بل يتحمل ويسأل ربه التوفيق، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، قدر الله وما شاء فعل، ولا يجزع، ولا يفعل ما لا ينبغي، ولا يقل ما لا ينبغي)^(١١٢).

وللصبر أسباب تعين عليه من استرشد بها واهتدى بهاها:

أن يعرف العبد طبيعة الحياة الدنيا وأنها دار ابتلاء، لا جنة نعيم ولا دار مقام، فالكيس الفطن، لا يفجأ بمكارهها، إذ الشيء من معدنه لا يستغرب.

(١١١) [سورة يوسف: (٨٦)].

(١١٢) [سورة يوسف: (٨٦)].

أن يومن بقضاء الله وقدره، أعظم ما تهون به البلايا، وتخف به المحن والرزايا؛
 لقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
 آتَاكُمْ﴾ (١١٣).

أن يستصغر الإنسان المصيبة التي تصيبه، بتذكر حاضر أنعم الله و سوا الفها،
 والنظر إلى نعمة العافية مما هو أعظم.

أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه، وأنه ملك لله، فلا اعتراض على المالك الرحمن
 الرحيم في صنعه في ملكه.

أن يوقن بالفرج؛ الذي وعد الله به، وأن يوقن بحسن الجزاء، الذي أعده الله
 لعباده الصابرين، وعليه أن يستعين بالله بكثرة دعائه وسؤاله التوفيق للصبر.



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَىٰ فَهُمْ بِهَا
قَدْ أَضْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانٍ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام الحادي عشر من مقامات السائرين إلى الله: مقام الرضا؛ فيرضى بما قسم الله له، وقدره عليه، فليس في نفس العبد المؤمن إلا الرضا بما دبره له رب العالمين.

فالرضا هو باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العابدين، وطريق السعداء الموقنين، فعن العباس بن عبدالمطلب - رضي الله عنه -، أنه سمع رسول الله - ﷺ -، يقول: (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا) (١١٤).

كيف لا نرضى ونحن نوقن أن الله هو الرحمن، أرحم بعباده من الأم بولدها؟! كيف لا نرضى ونحن نوقن أن الله هو العليم، يعلم ما يصلح عبده وما يضره، والعبد جاهل لا يرى إلا تحت قدميه؟! كيف لا نرضى ونحن نوقن أن الله هو (اللطيف)، يبتلي عباده بالمصائب؛ ليُطهرهم من الذنوب؟! كيف لا نرضى ونحن نوقن أن الله هو الودود، يتودد إلى عباده بنعمة اللامحدودة: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١١٥).

(١١٤) [أخرجه مسلم: (٣٤)].

(١١٥) [سورة النحل: (١٨)].

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ -: (أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير) ^(١١٦).

لاحظ أنه قال: نعمة، ولم يقل: نعم؛ لأن كل نعمة محشوة بنعم لا تُعد ولا تحصى، حتى إن المحنة حشوها نِعَمٌ كثيرة، فكيف لا نرضى؟!

إذا عَلِمَ العبدُ أن الله كافٍ جميع عبادته، وثق بضمانه، فاستراح من تعبته، وأزال الهموم والأكدار عن قلبه، فدخل جنة الرضا والتسليم، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم، فيكتفي بالله، ويقنع بعلم الله، ويثق بضمانه ^(١١٧).

العبد ذو ضجرٍ والرُّبُّ ذو قدرٍ والدهرُ ذو دُولٍ والرِّزْقُ مقسومٌ
والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقنا وفي اختيار سواه اللوم والشومُ

فالرضا: هو تَقَبُّلُ ما يقضي به الله من غير تردُّدٍ ولا معارضة، وقيل: الرضا هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام، لماذا؟ لأن كل ما حصل لك أو عليك إنما هو بقدر الله؛ فلا تحزن على أمر فات، ولا تخف مما هو آت.

بماذا نرضى؟

١ - ارضَ بالله ربًّا، ربًّا يلزمك أن ترضى بأوامره امتثالًا، وترضى بنواهيه اجتنابًا، وترضى بأقداره المؤلمة، ترضى بكل نعمة ومصيبة، وكل منع وعطاء، وكل

(١١٦) [تفسير ابن كثير: (٤ / ٥٦٤)].

(١١٧) [البحر المديد: (٥ / ٣٢٠)].

شدة ورخاء، ترضى إذا عافاك، ترضى إذا ابتلاك، ترضى إذا وضعك في السجن وحيداً فريداً، ترضى به إذا أغناك وحباك، ترضى به إذا أعدمك وأفقرك.

٢- ارض بالإسلام ديناً، فما في الإسلام من حكم أو أمر أو نهي، فإنك ترضى عنه تمام الرضا، وليس في نفسك أيُّ حرج، وتسلم لذلك تسليماً، ولو خالف هواك، ولو كان أكثر الناس على خلافك، ولو كنت في غربة، ترضى بأحكام الدين، وتسعى لتنفيذها وإن خالفت العالم.

٣- ارض بمحمد - ﷺ - رسولاً، بأن يكون أولى بك من نفسك، فترضى بسنته فتشرها وتدافع عنها، ولا تتحاكم إلا إليها.

٤- ارض بما أنت عليه، ارض بصورتك وصوتك، ووضعتك ومستواك ودخلك، ارض ببلدك وبيتك، ارض بما قسم الله لك من جسد وسكن ومال وعيال، وهذا هو منطق القرآن.

إن الذي يرضى بقضاء الله وقدره، فإن الله يملأ قلبه سعادة وسروراً ورضاً، أما الذي يتسخط ويعترض، وينظر إلى غيره، فإنه يعيش في شقاء لا يعلمه إلا الله؛ وقال - ﷺ -: (وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ) ^(١١٨).

قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: (لَأَنَّ الْحَسَّ جَمْرَةً أَحْرَقَتْ مَا أَحْرَقَتْ، وَأَبْقَتْ مَا أَبْقَتْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لشيءٍ كَانَ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ، أَوْ لشيءٍ لَمْ يَكُنْ: لَيْتَهُ كَانَ) ^(١١٩).

(١١٨) [أخرجه الترمذي: (٢٣٠٥)].

(١١٩) [الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (٩ / ٢٤٥)].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - يقول مقالته المشهورة: (ماذا يصنع أعدائي بي، أنا جتتي وبستاني في صدري، أتى رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) (١٢٠).

مَنْ استقرت هذه المعاني في قلبه، امتلأ قلبه رُضًا عن الله وبقينه، فصاحب الإيمان بالقدر يعيش عيشة هنيئة، ويحيا حياة كريمة طيبة؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لن يصيبه إلا ما قدره الله له، ولن يُخطئه إلا ما قدره الله له، فلا بد أن ترضى فَمَنْ رَضِيَ فله الرضا والسعادة، ومن سخط فعليه السخط والشقاوة.

يا مالك النفس قاصيها ودانيها	رضاك خيرٌ من الدنيا وما فيها
سوى رضاك فذا أقصى - أمانها	فليس للروح آمالٌ تُحققها
خيرٌ إليّ من الدنيا وما فيها	فمنظرةٌ منك يا سُؤلي ويا أُملي



قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

شَكَرُوا الَّذِي أَوَّلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ
بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام الثاني عشر: مقام الشكر، والإيمان نصف صبر، ونصف شكر، قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ -: (ولا يتم الإيمان إلا بالصبر والشكر؛ فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى) ^(١٢١).

وإذا كان الإيمان نصفين: نصفٌ منهما صبر، ونصفٌ منهما شكر؛ فلا شك أن الوصفين مُتلازمان، بهما يكمل الإيمان ويتم اليقين، وبهما يصل المؤمن الموقن إلى مقام الإحسان الذي فسّره خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين في حديث جبريل عليه السلام فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ^(١٢٢).

واختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنها متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

[١٢١] (@).

[١٢٢] (@).

الصبر حبس النفس على ما ينفعها وعمّا يضرّها عاجلاً وآجلاً، دنيا وآخرة، وحقيقته حبس النفس على طاعة الله بحيث لا تملّها وتركها، وعن معصية الله فلا تتشوق إليها وتقتحمها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها وتعترض عليها وتقول أو تفعل ما يخالف الشرع عند وقوعها، وعن الأهواء المضلّة بترك الإصغاء إلى شبهات دعائها، والحذر من معارضة الشرع بالرأي تحقيقاً لمقاصدها، فالصبر حبس النفس على مداومة الطاعة، والحيلولة بينها وبين اقتحام المعصية المهلكة، وعن الجزع ومخالفة الشرع بالصوت أو الجوارح عند ابتلائها بما تكرهه، وعن الإصغاء إلى الأهواء المضلّة؛ حتى لا تتمردّ على ربها، ويزيّن لها سوء عملها.

لذا جعل الله تعالى بحكمته الدنيا داراً متغيرة الأحوال، متبدلة المراحل والأطوار، فسروور يعقبه الحزن، ويسر يخلفه العسر، والسقم تتبعه العافية، واجتماع بعده الفرقة في الدنيا أو إلى الدار الآخرة، هكذا أرادها الله ابتلاء لعباده واختباراً، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١٢٣).

فلولا الصبر لغرق المهموم في همومه، ولضاق الحزين ذرعاً بأحزانه وغمومه.

قال العلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (فالصابر هو الذي يكف جوارحه عما لا ينبغي، ويكف لسانه عما لا ينبغي، ويعمر قلبه بالطمأنينة والاحتساب، وعدم الجزع، والإيمان بأن الله سبحانه هو الحكيم العليم، وأنه - جل وعلا - يقدر المصائب لحكمة

بالغة، يقدر على هذا مرض.. على هذا حادث سيارة.. على هذا موت.. على هذا إيذاء من فلان، أو فلان.. إلى غير ذلك، له الحكمة البالغة) (١٢٤).

وقال أيضاً - رَحِمَهُ اللهُ -: (والصبر واجب متعين، بحيث يكف يده ولسانه وجوارحه كلها عما لا ينبغي، فلا ينوح ولا يشق ثوباً، ولا يلطم خدّاً، بل يحتسب، ويصبر، ويعلم أن ذلك من عند الله، فيحتسب ذلك، ويكف جوارحه عما لا ينبغي، فالصبر واجب، والرضا سنة مؤكدة، والجزع محرم، الجزع والنياحة وشق الثوب ولطم الخد كل هذا محرم، فالجزع محرم، والصبر واجب، والرضا هو الكمال) (١٢٥).

الصبر يكون عند الابتداء، وحال الفعل، وبعد الانتهاء، فإن عَرَضَ لك الخير، فبادر إليه وصبر نفسك عليه، وإذا انتهت، فصبر نفسك عما يُبْطِلُه ويذهب أجره، وإن عرض عليك الشرّ، فاصبر عنه واشتغل بما ينفعك وأباح الله لك إلهاء نفسك عنه.

والشكر وهو النصف الثاني من الإيمان فهو من أَجَلِّ منازل المؤمنين، وأرفع درجات المقربين، والشكر هو صرف نِعَمِ الله على العبد فيما خُلِقَتْ له، ولا يكون العبد شاكراً إلا إذا كان صابراً، فإن الصبر أساس الشكر.

(١٢٤) [نور على الدرب (١١٦١٧)].

(١٢٥) [@].

وكان الشكر صفة من صفات الأنبياء التي أثنى الله عليهم بها فقال نوح:
﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(١٢٦)، وقال عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٢٧).

ودرجة الشكر فوق درجة الصبر؛ بل فوق درجة الرضا؛ لأن الرضا مندرج
في الشكر ومندمج فيه؛ فلا يكون العبد شاكرًا لربه إلا إذا كان راضيًا عن ربه، مُشْنِيًا
عليه بالثناء الحسن الجميل، مُوقِنًا أننا لا نُحْصِي - ثناءً عليه، سبحانه هو كما أثنى على
نفسه.

وأخبر - جَلَّ جَلَالُهُ - أنها يعبد من شكره، ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته
فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١٢٨).

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها
جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(١٢٩).

(١٢٦) [الإسراء: ٣].

(١٢٧) [النحل: ١٢٠].

(١٢٨) [البقرة: ١٧٢].

(١٢٩) [الأعراف: ١٧].

فالشكر أعلى منازل السالكين إلى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، ولن يكون كذلك حتى يبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

إن حصول النعمة سبب يدعو الإنسان إلى شكر الله تعالى، ومن شكر الله: القيام بسجدة الشكر عند حصول ما يُسر؛ فقد كان رسول الله - ﷺ - إذا جاءه أمرٌ يسره، أو بُشر به خسر ساجداً لله شكراً.

فالشكر الشكر يا عباد الله على نعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ما قل منها وما كثر، فبالشكر تدوم النعم وتزيد، وبالجحود تفنى وتبديد، وقد يخلفها العذاب والنقمة، والندم والحسرة. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٣٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنی والمثل الأعلى وما خلقه في الآخرة والأولى). (١٣١).

(١٣٠) [النحل: ١١٢].

(١٣١) [مجموع الفتاوى (١١-١٣٣)].

قال العلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (والمؤمن من شأنه أن يكون صبوراً شكوراً، فالمؤمن صبور على المصائب شكور على النعم، صبور مع أخذه بالأسباب وتعاطيه الأسباب، فإن الصبر لا يمنع الأسباب، فلا يجزع من المرض ولكن لا مانع من الدواء).

فلا يجزع من قلة غلة المزرعة أو ما يصيبها، ولكن يعالج المزرعة بما يزيل من أمراضها، فالصبر لازم وواجب، ولكن لا يمنع العلاج والأخذ بالأسباب.

فالمؤمن يصبر على ما أصابه ويعلم أنه بقدر الله، وله فيه الحكمة البالغة، ويعلم أن الذنوب شرها عظيم وعواقبها وخيمة، فيبادر بالتوبة من الذنوب والمعاصي (١٣٢).

وقال العلامة ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -: (إذا نظر الإنسان إلى ما يترتب على هذه المصيبة من مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، ورفعة الدرجات؛ شكر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أن ادخر له من الخير والثواب خيراً مما جرى عليه من هذه المصيبة؛ فيكون بذلك شاكراً لله سبحانه وتعالى).

أما ما اشتهر على لسان كثير من الناس، حيث يقول: إذا أصيب بمصيبة: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه؛ فهي عبارةٌ بشعة، ولا ينبغي للإنسان أن يقولها؛ لأن هذا يعلن إعلاناً صريحاً بأنه كارهٌ لما قدر الله عليه، وفيه شيء من التسخط، وإن كان غير صريح (١٣٣).

(١٣٢) [لقاءات وحوارات (٤٦)].

(١٣٣) [فتاوى نور على الدرب (٢٨٠)].



قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ
مَعَ بَذْلِ جُهِدٍ فِي رِضَى الرَّحْمَنِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام الثالث عشر مقامات السعداء: التوكل على الله في جميع الأمور، فالتوكل أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله.

التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله - عَزَّجَلَّ - في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة والاعتقاد بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر - ولا ينفع سواه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

قال سعيد بن جبیر - رَحِمَهُ اللهُ -: (التوكل جماع الإيمان) (١٣٤).

وقال ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (التوكل على الله معناه: التفويض إليه والاعتماد عليه سبحانه، فهو يخرج من بيته متوكلاً على الله، يصوم متوكلاً على الله، يصلي متوكلاً على الله، ويعتمد عليه في أداء هذه الأمور لا على نفسه، ولا على زيد وعمرو، بل هو يصلي

ويتوكل على الله أن الله يعينه على أدائها، ويصوم ويتوكل على الله أن الله يعينه على أداء الصيام) (١٣٥).

وقال العلامة ابن عثيمين: (حقيقة التوكل على الله عز وجل تفويض أمرك إلى الله، أن يفوض الإنسان أمره إلى الله، ويصدق في الاعتماد عليه في جلب المنافع، ودفع المضار، ويثق في الله عز وجل، وبوعده، ويفعل الأسباب الشرعية والحسية التي أمر الله بها، هذا هو التوكل، وأنت إذا اعتمدت على ربك على هذا الوصف؛ فإن الله تعالى حسبك وكافيك) (١٣٦).

إن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل بل هو من تمامه وكمال له لكن الحذر من ركون القلب إلى الأسباب فهذا الذي ينافي التوكل والسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله والتوكل بالقلب على الله إيمان بالله.

حينما يؤمن العبد بالقدر خيره وشره؛ فإنه يطمئن ويتوكل على خالقه؛ ذلك لأنه يعلم أن الله يعلم كل ما كان، وما هو كائن وما سيكون، وذلك مكتوبٌ عنده في اللوح المحفوظ منذ الأزل، وأنه -سبحانه- خالق كل شيء في هذا الكون، وهو المتصرف والمتحكم بكل شيء، فلا يحدث شيء دون إرادته وحكمه.

توكل على الرحمن في كل حاجة ولا تؤثرن العجز يوماً على الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم إليك فهزي الجزع يساقط الرطب

(١٣٥) [نور على الدرب (٨٦٦٢)].

(١٣٦) [فتاوى نور على الدرب (٢٧١)].

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جتته ولكن كل شيء له سبب تفويض الأمر إلى الله بين القرآن الكريم للمسلم بأن كل شيء بيد الله؛ فلا يحصل النفع والضرر إلا بإرادته، فإن آمن العبد بذلك كان مُطيعاً لأمر الله.

فالْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ في إيمانه هو الذي يتوكل على الله أبداً، أما المنافق لا يتوكل على الله بل يتوكل على نفسه وعلى غيره من المخلوقات.

فرض الله على عباده التوكل؛ فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فهذا دليل على أن صحة الإسلام والإيمان متوقفة على التوكل؛ فالتوكل على غير الله يُعدّ شركاً، وقد جمع الله في الآيات القرآنية بين التوكل والعبادة، والتوكل والإيمان، والتوكل والإسلام، والتوكل والتقوى، والتوكل والهداية.

قال - ﷺ -: (لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ تَوَكُّلِهِ لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدُو خِمَاصًا، وتروحُ بِطَانًا) (١٣٧).

والتوكل من أعظم العبادات تعلُّقاً بالأسماء والصفات؛ ذلك أن مبناه على أصليْن عظيمين:

الأول: علم القلب؛ وهو يقينه بعلم الله وكفايته وكمال قيامه بشأن خلقه؛ فهو القيُّوم سبحانه الذي كفى عباده شؤونهم، فبه يقومون وله يصمدون.

(١٣٧) [أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع].

والثاني: عمل القلب؛ وهو سكونه إلى العظيم الفعال لما يريد، وطمأنينته إليه، وتفويض أمره إليه، ورضاه وتسليمه بتصرُّفه وفعله؛ إذ كلُّ شيء يمضي - ويكون فيحكمه وحكمته، وقدره وعلمه، لا ينفذُ شيء في الأرض ولا في السماء عن قدرته؛ فله الحكم كلُّه، وإليه يُرجع الأمر كلُّه^(١٣٨).



(١٣٨) [طريق الهجرتين (ص: ٤٢٦)].

قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

عَبَدُوا إِلَهَ عَلَى اغْتِقَادِ حُضُورِهِ
فَتَبَرَّؤُوا فِي مَنَزِلِ الْإِحْسَانِ

قالت الشارحة - وفقتها الله -:

المقام الرابع عشر: مقام الإحسان، الإحسان: ضد الإساءة، - ﷺ - إذ قال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ^(١٣٩). فهو التحقُّق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة ^(١٤٠).

قال - عَزَّوَجَلَّ -: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(١٤١).

قال ابن رجب - رَحِمَهُ اللهُ -: (وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان، لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه المراقبة لله وحضور القلب كأنه يراه وينظر إليه، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عياناً في الآخرة، وعكس هذا ما أخبر الله به عن الكفار في الآخرة، فإن ذلك جزاء لحالهم في الدنيا لما تراكم من الذنوب

(١٣٩) [أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)،].

(١٤٠) [التعريفات للجرجاني (ص: ٢٧)].

(١٤١) [سورة يونس: (٢٦)].

على قلوبهم، فحجبهم عن معرفة الله ومراقبته في الدنيا، فكان جزاؤهم أن حجبوا عن رؤية الله في الآخرة) (١٤٢).

والإحسان صفة من صفات الله تعالى، واسم من أسمائه، فهو المحسن على خلقه لم يزل، وقد أمر عباده بالإحسان أمراً عاماً، فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾، وأخبر النبي ﷺ - بذلك فقال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء) (١٤٣).

وقال العلامة ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -: (فالإحسان في الحقيقة يشير فيه الرسول ﷺ - إلى أنه نوعان: إحسان بطلب، وإحسان بهرب؛ الأول: أن تعبد الله كأنك تراه فتطلبه وترغب الوصول إليه، والثاني: كأنه يراك فتخافه وتخشاه وتعظمه، والأول أكمل من الثاني، هذا هو القول الراجح في معنى الحديث، وإن كان بعضهم يقول: إنه مرتبة واحدة وأن المعنى: إن لم تكن تراه فإنه يراك، قريب من المعنى الأول، فالجملتان قريبتان من الترادف؛ ولكن الصواب ما قلناه أولاً) (١٤٤).

مكانة الإحسان وفضله:

الإحسان خلق جميل؛ هو دليل على النبيل، واعتراف بالفضل، وعرفان للجميل، وقيام بالواجب، واحترام للمنع. ينبئ عن الصفاء، وينطق بالوفاء، ويترجم عن السخاء؛ بالإحسان يشتري الحب، ويُخطب الودّ، وتكسب النفوس،

(١٤٢) [٢].

(١٤٣) [أخرجه مسلم (١٩٥٥)].

(١٤٤) [٢].

ويُيَمِّن على القلوب، وتستعبد الأفتدة. الإحسان عطاء بلا حدود، وبذل بلا تردد، وإنعام دونها من، وإكرام لا يلحقه أذى.

فالمحسن لا يؤذي أحداً، فإن آذاه أحد عفا وصبر وصفح وغفر، وإذا عامل الناس عاملهم بالفضل والإحسان، فيعطيههم وإن منعوه، ويصلهم وإن قطعوه، ويمنّ عليهم وإن حرموه، وإنما كان كذلك لأنه كان بالله غنياً، وبه راضياً، ومنه قريباً، ولديه حبيباً.

فَمَنْ أَحْسَنَ مَعَ اللَّهِ أَحْسَنَ مَعَ النَّاسِ، ووجد في قلبه سهولة الإحسان إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١٤٥﴾.

يقول ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (منزلة الإحسان هي لب الإيمان وروحه وكماله)

(١٤٦).

فهو لب الإيمان، وروح الإسلام، وكمال الشريعة، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال، وأعظم درجات الإحسان: الإحسان مع الله جل وعلا، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقات، حتى يشمل البهائم والعجاوات.

(١٤٥) [سورة فصلت: (٣٥)].

(١٤٦) [مدارج السالكين (@)].

صور لخلق الإحسان:

الإحسان في العبادة: أعظم شيء على المسلم أن يحسنه ويتقنه: عبادته لربه. أن يأتي بها على الوجه المشروع دون زيادة ولا نقصان. أن يتقن صلاته وزكاته وحجه وصيامه، أن يحسن في كل قول أو عمل يتقرب به إلى ربه سبحانه.

قال العلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (هكذا أهل الإحسان هم الذين يؤدون الواجبات ويتتهون عن المحرمات، ومع ذلك يجتهدون في وجوه الخير، وأعمال الخير الذي لا تجب عليهم يجتهدون فيها حتى يستوفوا منها الخير الكثير، فالمحسن يعبد الله كأنه يراه كأنه يشاهده، فإن لم يستحق هذه الدرجة عمل على أن الله يراقبه، وأن الله يطلع على أعماله وهو يستحضر هذه المشاهدة، يستحضرها حتى يكون ذلك أشجع له على فعل الخيرات والمصارعة إلى الطاعات والكف عن المحرمات والعناية بالواجبات.. هكذا المحسن، يحرص على كل خير من واجب ومستحب ويتباعد عن كل شر وعن كل ما ينبغي تركه ولو كان غير محرم) (١٤٧).

الإحسان في القول والعمل: فالإحسان واجب في كل شيء؛ في الأقوال والأفعال والأخلاق، والمعاملات... والفساد منه في كل شيء. قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٤٨).

(١٤٧) [نور على الدرب (١٦٩٤٠)].

(١٤٨) [سورة النحل: (٩٠)].

فالإسلام يدعو إلى إتقان العمل وزيادة الإنتاج، ويعدُّ ذلك أمانة ومسؤولية،
فليس المطلوب في الإسلام مجرد القيام بالعمل، بل لا بُدَّ من الإحسان والإجادة فيه
وأدائه بمهارة وإحكام.

الإحسان إلى الخلق: فما أجمل الإحسان وما أجمل أهله؛ فالإحسان كالمسك
ينفع حامله وبائعه ومشتريه. والمحسن محبوب عند الله، ومحبوب عند عباد الله.

قال الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله -: (الإحسان في معاملة الخالق بفعل
الواجبات وترك المحرمات واجب، وفي فعل المستحبات وترك المكروهات مستحب،
والإحسان في معاملة الخلق، منه ما هو واجب كالإحسان إلى الوالدين والأقارب
بالبر والصلة، ومنه ما هو مستحب كصدقة التطوع، وإعانة المحتاج، والإحسان في
قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب بإزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها، من
غير زيادة في التعذيب، وهكذا مطلوب من المسلم أن يكون محسناً في كل شيء مما يأتي
وما يذر، محسن في عمله، محسن في تعامله مع الله ومع خلقه، ومحسن في نيته وقصده)

(١٤٩)

ومما سبق نستطيع القول: إن الإسلام هو دين الإحسان بكلِّ قيمه وتعاليمه.



قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحَبَّتِهِمْ
بِالْعِلْمِ وَالْإِزْشَادِ وَالْإِحْسَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام الخامس عشر: مقام النصيحة للخلق في رضا الرب سبحانه، والنصيحة هي حيازة الخير للغير.

إن النصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، هي من أعظم الأمور الواجبة على المسلم؛ بل إن النبي - ﷺ - قد جعلها هي الدين كله لما قال: (الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال - ﷺ -: الله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)

(١٥٠)

قال العلامة ابن دقيق العيد - رَحِمَهُ اللهُ -: (والنصيحة كلمة جامعة معناها إرادة جملة الخير حيازة لحظ المذبح له، وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة) (١٥١).

(١٥٠) [رواه مسلم (@)].

(١٥١) [شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٥٠)].

قال النووي - رَحِمَهُ اللهُ -: (هذا حديث عظيم الشأن، وعليه مدار الإسلام، وأما ما قاله جماعات من العلماء: إنه أحد أرباع الإسلام؛ أي: الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الإسلام - فليس كما قالوا، بل المدار على هذا وحده) (١٥٢).

قال العلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (فهذا الحديث العظيم يدل على أن الدين هو النصيحة، وذلك يدل على عظم شأنها لأنه جعلها الدين) (١٥٣).

فالتناصح بين المسلمين من معالم الدين الحنيف، ومن حسن التعامل بين الناس أن يتناصحوا فيما بينهم بالمعروف، وبغير أن يحدثوا منكراً أكبر مما ينصحون به، مع إخلاص المحبة للمنصوح، ومعرفة حقه لإسلامه، ومعرفة حقه لموقعه في المجتمع.

وهذا الحديث يوضح معالم النصح، ولمن يكون وكيف يكون؛ فيخبر - ﷺ - أن النصيحة هي عماد الدين وجوهره، ووسيلة ظهوره وانتشاره، والنصيحة: هي تحري قول أو فعل فيه صلاح لصاحبه، أو تحري إخلاص الود له، والحاصل: أن النصيحة هي إرادة الخير للمنصوح له، وهي لفظ جامع لمعان شتى، ويظهر ذلك في النصح والتناصح بين المسلمين، والنصيحة لله هي التعظيم لأمره، والشفقة على خلقه، وتكون بالدعوة إلى الإيمان به، ونفي الشرك وجميع النقائص عنه، وإخلاص العبادة كلها له سبحانه.

(١٥٢) [شرح مسلم للنووي (٢ / ٣٢)].

(١٥٣) [مجموع الفتاوى (٢٠١٧٤)].

النصيحة لله تعالى:

النصيحة لله تعالى معناها منصرف إلى الإيمان به ونفي الشرك عنه وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه عن جميع النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته والحب فيه، والبغض فيه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمته والشكر عليها والإخلاص في جميع الأمور والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها والتلطف بالناس.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ - حفظه الله -: (النصيحة لله: وهي كلمة جامعة لأداء حق الله جل وعلا الواجب والمستحب، فحق الله الواجب هو الإيمان به، ربوبيته وإلهيته، وبأسماؤه وصفاته:

أولاً: إيمان بأنه هو الرب المتصرف في هذا الملكوت وحده، لا شريك له في ربوبيته، ولا في تدبيره للأمر، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد سبحانه وتعالى.

ثانياً: والنصيحة لله في ألوهيته أن يعطى الحق الذي له في ألوهيته، وهو أن يعبد وحده بجميع أنواع العبادات، وألا يتوجه لأحد بشيء من العبادات إلا له سبحانه وتعالى، كل عبادة توجه بها إلى غير الله جل وعلا فهي خروج عن النصيحة لله جل وعلا، يعني عن أداء الحق الذي له سبحانه وتعالى.

الثالث: وفي الأسماء والصفات: النصيحة لله - جَلَّ جَلَالُهُ - أن تؤمن بأنه سبحانه له الأسماء الحسنى، والصفات العلا، وأنه لا سمي له، ولا ند له، ولا كفول له (١٥٤).

النصيحة لكتابه:

قال الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -: (النصيحة لكتابه تتضمن أموراً منها:

الأول: الذب عنه ، بأن يذب الإنسان عنه تحريف المبطلين ، ويبيّن بطلان تحريف من حرّف.

الثاني: تصديق خبره تصديقاً جازماً لا مريبة فيه ، فلو كذب خبراً من أخبار الكتاب لم يكن ناصحاً، ومن شك فيه وتردد لم يكن ناصحاً.

الثالث: امتثال أوامره، فما ورد في كتاب الله من أمر فامتثله ، فإن لم تمتثل لم تكن ناصحاً له.

الرابع: اجتناب ما نهى عنه، فإن لم تفعل لم تكن ناصحاً.

الخامس: أن تؤمن بأن ما تضمنه من الأحكام هو خير الأحكام، وأنه لا حكم أحسن من أحكام القرآن الكريم.

السادس: أن تؤمن بأن هذا القرآن كلام الله عز وجل حروفه ومعناه ، تكلم به حقيقة، وتلقاه جبريل من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ونزل به على قلب النبي - ﷺ - ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين^(١٥٥).

النصيحة لرسوله - ﷺ - :

قال ابن رجب - رَحِمَهُ اللهُ -: (النصيحة لرسوله : قريب من ذلك ؛ الإيمان به وبما جاء به، وتوقيره وتبجيله ، والتمسك بطاعته ، وإحياء سنته ، واستشارة علومها، ونشرها، ومعاداة من عاداه وعاداه، وموالاة من والاه ووالاه، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه ، ومحبة آله وصحابته ، ونحو ذلك)^(١٥٦).

وقال الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -: (النصيحة لرسوله تكون بأمر منها: تجريد المتابعة له ، وأن لا تتبع غيره، والإيمان بأنه رسول الله - ﷺ - حقاً، لم يكذب ، ولم يكذب ، فهو رسول صادق مصدوق، وأن تؤمن بكل ما أخبر به من الأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلية، أن تعتقد أن ما جاء عن رسول الله ، فهو كما جاء عن الله تعالى ، في لزوم العمل به ، لأن ما ثبت في السنة ، فهو كالذي جاء في القرآن، نصرته النبي - ﷺ -)^(١٥٧).

النصيحة للأئمة المسلمين وعامتهم:

(١٥٥) [شرح الأربعين النووية (ص ١١٦)].

(١٥٦) [جامع العلوم والحكم (١/ ٢٣٣)].

(١٥٧) [شرح الأربعين النووية (ص ١١٧)].

أما نصيحة أئمة المسلمين فقال النووي - رَحِمَهُ اللهُ -: (معاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه وأمرهم به ، وتنبيههم وتذكيرهم برفقٍ ولطفٍ ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتألف قلوب الناس لطاعتهم ، ومن النصيحة لهم : الصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأداء الصدقات إليهم ، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيفٌ أو سوء عشرة ، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم ، وأن يدعى لهم بالصلاح) (١٥٨).

وقال ابن رجب - رَحِمَهُ اللهُ -: (وأما النصيحة للمسلمين: فأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ويشفق عليهم ، ويرحم صغيرهم ، ويوقر كبيرهم ، ويحزن لحزنهم ، ويفرح لفرحهم ، وإن ضره ذلك في دنياه ، كرخص أسعارهم ، وإن كان في ذلك فوات ربح ما يبيع في تجارته ، وكذلك جميع ما يضرهم عامة ، ويجب ما يصلحهم ، وألفتهم ودوام النعم عليهم ، ونصرهم على عدوهم ، ودفع كل أذى ومكره عنهم) (١٥٩).

والواجب على كل مسلم النصح لأخيه المسلم مهما كانت شخصيته في المجتمع ، وإن لم يقدر الشخص على المواجهة ، فيكتب له ورقة فيها النصح ، تكون بأسلوب واضح ومناسب دون تجريح للشخص ، أما إذا أمكن نصحه مواجهة ، فيكون سرّاً ، وليس أمام الناس علانية ؛ لأن أكثر الناس لا يقبلون النصيحة إذا كانت

(١٥٨) [شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٨)].

(١٥٩) [جامع العلوم والحكم (ص ٨٠)].

في العلن؛ وذلك لما فيها من إحراجهم أمام الناس، وأما النصيحة في السر فإنها تحمل هذه المعاني.

قال العلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (فالنصح يكون بالأسلوب الحسن والكتابة المفيدة والمشافهة المفيدة، وليس من النصح التشهير بعيوب الناس، ولا بانتقاد الدولة على المنابر ونحوها، لكن النصح أن تسعى بكل ما يزيل الشر - ويثبت الخير بالطرق الحكيمة وبالوسائل التي يرضاها الله عز وجل، ونحن في نعمة عظيمة نعمة الإسلام، ونعمة الأمن، ونعمة الصحة والعافية، ثم النعمة الكبرى التي من الله بها علينا) (١٦٠).



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا
أَزْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام السادس عشر: مصاحبة الناس فيما ينفع واعتزالهم فيما لا يفيد؛ فيسلك معهم وبهم ما يقربه وإياهم إلى الله - عَزَّوَجَلَّ -.

فالله - عَزَّوَجَلَّ - خلقنا شعوباً وقبائل لتتعارف وتتآلف، لا لتعتزل الحياة العامة وننطوي ونخالف، والدين الإسلامي اجتماعي بطبيعة شعائره، يظهر فيها الرباط المجتمعي واضحاً بيناً، يربط بين أفرادهِ في المشارق والمغارب.

ثم أن الوحدة والانفراد خير من مجالسة أهل السوء، وأن مجالسة أهل الصلاح خير من الوحدة، وكان أول من اعتزل إبراهيم عليه السلام، حين قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾^(١٦١)، وأصحاب الكهف حين قصَّ علينا القرآن قصتهم، فقال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾^(١٦٢).

(١٦١) [سورة مريم: (٤٨)].

(١٦٢) [سورة الكهف: (١٦)].

فالعزلة ما هي إلا وسيلة لحفظ النفس عن الآثام، وتزكيتها بالفضائل، وتخليها عن الرذائل، فلا نقصد بالعزلة تلك التي تمنعك عن الجُمع والجماعات، وجحود الآباء، وبخس حق الأبناء، وترك حقوق العباد؛ من رد السلام، وإجابة الدعوات، والأمر بالخير والنهي عن المنكرات.

وقال النبي ﷺ - (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ: إِمَّا أَنْ يُخَذِّكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً) (١٦٣).

قال النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة) (١٦٤).

أما ما روي عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال النبي ﷺ - (الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُحَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُحَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ) (١٦٥).

فهذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومخالطتهم لأجل ذلك، وإسداء النصيحة لهم، لا لمجرد المجالسة والمؤانسة.

(١٦٣) [متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨)].

(١٦٤) [شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٧٨)].

(١٦٥) [رواه الترمذي (٢٥٠٧)].

فمن خالط الناس ، ودعاهم إلى الله - جَلَّ وَعَلَا- ، ووعظهم ، ونصحهم ، وذكرهم ، وصبر على آذاهم في سبيل ذلك ؛ فهو خير ممن لا يخالطهم ولا يدعوهم ، ولا يصبر على أذى يلقاه منهم في سبيل ذلك .

وقال الصنعاني - رَحِمَهُ اللهُ -: (فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحسن معاملتهم، فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة، والأحوال تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان) (١٦٦) .

وقال الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -: (العزلة خير إذا كان في الخلطة شر، أما إذا لم يكن في الخلطة شر؛ فالاختلاط بالناس أفضل) (١٦٧) .

وقال أيضاً - رَحِمَهُ اللهُ -: (من كان يخشى على دينه بالاختلاط بالناس: فالأفضل له العزلة، ومن لا يخشى: فالأفضل أن يخالط الناس، فمثلاً: إذا فسد الزمان ورأيت أن اختلاطك مع الناس لا يزيدك إلا شراً وبعداً من الله ، فعليك بالوحدة ، اعتزل .. ؛ فالمسألة تختلف، العزلة في زمن الفتن والشر والخوف من المعاصي خير من الخلطة ، أما إذا لم يكن الأمر كذلك ، فاختلط مع الناس ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر، واصبر على آذاهم وعاشرهم) (١٦٨) .

(١٦٦) [سبل السلام (@)].

(١٦٧) [شرح رياض الصالحين: (٣) / (٧٢)].

(١٦٨) [شرح رياض الصالحين: (٥) / (٣٥٤)].

فالمضابط في أمر العزلة: أن يخالط الناس في الخير؛ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلّم العلم، والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يُمكنه اعتزالهم، فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم.

ألا إن كل امرئ طبيب نفسه، يعلم ما يضره وما يُصلحه، فتعاهد قلبك، وانظر ما يُصلحه، واذهب إلى الله بضعفك يأتك بقوته، وادعُ دعاء المضطر، ينظر إليك بعين رحمته، فهو وحده حسبنا وهو نعم النصير.



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

بِاللَّهِ دَعَوَاتِ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا
خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام السابع عشر -: مقام الدعاء، وهو طلب الحاجات من رب الأرض والسموات سبحانه، فتنتطح بين يدي الله وتسال الله - جَلَّ وَعَلَا - من فضله؛ فإن الفضل كل الفضل بيد الله، وليس بينك وبين الله إلا أن تسأله مما في يديه فيعطيك، والله يقلب عبده بين السراء والضراء؛ ليستخرج منه مكنون التضرع والدعاء.

فهذه منزلة الرعاية لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان وذلك أن العبد لا ينبغي له ان يعرض عن تدبر أحواله، والتفكر في نقص أعماله، بل يبذل جهده قبل العمل وفي نفس العمل، ثم يصونه من المفسدات وينزهه عن المنغصات فإن حفظ العمل أعظم من العمل، فكلما ازداد العبد رعاية لعمله واجتهاداً فيه ازداد إيمانه، وكلما نقص من ذلك نقص من إيمانه بحسبه.

وو صف الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حال الأنبياء - وهم صفوة البشر - في عبادتهم وتقربهم ودعائهم فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (١٦٩).

والرَّغْب هو الطمع في جنة الله وفضله، والرَّهَب هو الخوف مِنْ عقابه وناره. والعبادة عند أهل السُّنَّة تشمل المحبة والتعظيم، والمحبة تولّد الرجاء، والتعظيم يولّد الخوف. وليس بين الحب والخوف والرجاء تعارض.

الرجاء والخوف متلازمان عند أهل السُّنَّة، وعلماء أهل السُّنَّة يقولون: ينبغي للإنسان وهو في أيام صحته أن يغلبَ الخوف دائماً على الرجاء، وأن يكون خوفه أغلبَ من رجائه، فإذا حضره الموت غلبَ الرجاء حينئذ، فلا ينبغي للمؤمن أن يموت إلا وهو يحسن الظن بالله - جَلَّ جَلَالُهُ -.

قال الشيخ ابن عثيمين - رَحِمَهُ اللهُ -: (والإنسان يعلم أن الزمن يمضي سريعاً، ويزول جميعاً، وأنه لن يتقدم إلى الآخرة بالسنة، أو بالشهر، أو بالأسبوع، أو باليوم، أو بالساعة، بل باللحظة، اللحظة الواحدة كوميض البرق، أو كارتداد الطرف، تبعدك من الدنيا وتقربك إلى الآخرة، فالعاقل الحازم هو الذي يدين نفسه، ويحاسب نفسه، ويعمل لما بعد الموت، والعاجز هو الذي أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، فرط في الواجب وقال: إن الله عفو، انتهك المحرم وقال: إن الله غفور، توانى في طاعة الله - عَزَّجَلَّ - وقال: رحمة الله أوسع من عملي، ولا شك أن هذا عجز وضعف في الهمة) (١٧٠).

إن قلب المؤمن كالطائر، رأسه المحبة، وجناحه الخوف والرجاء، فإذا حصل النقص في أحدهما حصل النقص في الطير لا محالة، وإذا ذهب الطير بذهابهما.

فالخوف من الله - عَزَّوَجَلَّ -، من أجل العبادات وأفضل القربات، والخوف من الله تعالى مفتاح الخيرات والبركات.

المؤمن العاقل الحصيف، من يجعل نفسه بين مخافتين؛ ذنب مضي - لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما تصير عاقبته إليه.

إن الخوف المحمود الصادق هو الذي يُحول بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، وإن الرجاء المحمود الصادق هو الثقة بجود الرب سبحانه وفضله وكرمه للعاملين بطاعته، قال - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ^(١٧١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(١٧٢).

فبعض الناس قد يغتر بصحته أو بشبابه فيطلق لنفسه العنان؛ فلا يُلزمها بأداء فرائض الله، ولا يمنعها من المحرمات، ويؤجل التوبة من ذلك؛ إما اعتماداً على سعة عفو الله، وإما استبطاءً للأجل وتمديدًا للأمل، وهذا من تغرير الشيطان للإنسان، ومن تسويل النفس الأمارة بالسوء، وإلا فإنه مع سعة عفو الله فإن عقابه شديد، كما قال - عَزَّوَجَلَّ -: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(١٧٣).

(١٧١) [سورة الكهف: (١١٠)].

(١٧٢) [سورة البقرة: (٢١٨)].

(١٧٣) [سورة المائدة: (٩٨)].

فكما أنه سبحانه رحيم بعباده، فإنه غيور على محارمه، وفي كثير من الآيات
 قرن سبحانه مغفرته بتوبة العبد من ذنوبه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
 وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (١٧٤).

وقرن مغفرته لذنوب التائبين بشدة عقابه للعصاة كما في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ
 الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ (١٧٥).

وأما استبطاء الأجل وطول الأمل فإنهما من الغرور، فكم من عاص أخذ الله
 في ريعان شبابه ووافر صحته. وكم من صحيح الجسم مات من غير مرض، وكم
 من شخص فاجأه الموت في مأمنه وهو نائم على فراشه، أو راتع في شهواته، أو
 مستغرق في غفلاته، فالواجب المبادرة بالتوبة والعمل الصالح.



(١٧٤) [سورة طه: (٨٢)].

(١٧٥) [سورة غافر: (٣)].

قال الناظر - رَحِمَهُ اللهُ -:

عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا
قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى الرَّحْمَنِ

قالت الشارحة - وفقتها الله -:

المقام الثامن عشر -: الإنابة إلى الله وحده، والمنيب إلى الله: هو من أقبل على الله بكلية، وأعرض عما سواه.

عزفوا القلوب، يقال عزفت نفسه عن الشيء إذا زهدت فيه، وانصرف عنه، فمن صفاتهم أنهم عزفوا قلوبهم وصرفوها عن كل شيء يشغلهم عن الله ولا ينفعهم في آخرتهم.

وقال الشيخ السعدي - رَحِمَهُ اللهُ -: (تعلق القلب بالله وحده واللهج بذكره والقناعة، أسباب لزوال الهموم والغموم، وانشر-اح الصدر، والحياة الطيبة والضدُّ بالضدُّ، ولا أضيق صدرًا وأكثرهما بمن تعلق بغير الله، ونسي ذكر الله، ولم يقنع بما آتاه الله، والتجربة أكبر شاهد) (١٧٦).

ومن مظاهر الإقبال على الله ما يلي:

طلب العلم الشرعي: بحيث تتعرف المسلمة على ربها، كيف تعبده، وكيف تخشاه، وكيف تعيش لدينها.

فالله سبحانه وتعالى حلیم رحيم بعباده، يحب لهم الخير، من أراد به الله خيراً عظيماً، ونفعاً كثيراً، يفقهه في الدين، فيمنحه العلم الشرعي الذي لا يدانيه خير في هذا الوجود في فضله وشرفه، وعلو درجته؛ لأنه ميراث الأنبياء الذي لم يورثوا غيره، فالفقه في الدين من علامات خيرية المسلم.

الحرص على الوقت: لأن الاستفادة بالوقت في تعلم العلم الشرعي، وذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الطاعات، يُلين القلب ويجعله منبسّطاً منشراحاً سليماً، يهفو إلى مرضاة الله تعالى ويعرض عن المخلوقين.

وقد أرشد النبي ﷺ - أمته إلى اغتنام الفرص في الحياة؛ للعمل للآخرة بملء الأوقات بالطاعات؛ لأنها هي عمر الإنسان في الدنيا، وذخيرته في الآخرة.

الإكثار من نوافل الطاعات: إن النوافل باب عظيم من أبواب الخير، وميدان كبير للمسابقة في الطاعات، ونعمة عظمى أكرم الله بها عباده ليزدادوا منه تقرباً، ويحظوا بالرحمة والرضوان، ويُزكوا بها أنفسهم، ويحيوا قلوبهم.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال - رضي الله عنه -: (يقولُ اللهُ تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليّ عبدي بمثلِ أداءٍ ما افترضته عليه، ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليّ بالنوافلِ حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبصرُ به ويده التي يبطشُ بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمعُ وببي يُبصرُ وببي يبطشُ وببي يمشي، ولئن سألتني لَأُعطينه ولئن استعاذني لَأُعِينه، وما ترددت في شيءٍ

أنا فاعله ترددي في قبضِ نفسِ عبدي المؤمنِ يكره الموتَ وأكره مساءته ولا بدُّ له منه

(١٧٧).

قال الشيخ ابن باز - رَحِمَهُ اللهُ -: (وأحب شيء إلى الله أن تتقرب إليه بالفرائض، أن تتقرب إلى ربك بالفرائض من الصلوات، والزكوات، والصيام، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا الشيء يحبه الله عز وجل، هو أحب شيء إليه سبحانه وتعالى) (١٧٨).

فهيا أيتها المرأة الصالحة إلى مزيد من نوافل الطاعات، من تلاوة لكتاب الله تعالى، وذكر له سبحانه وتعالى، وتضرع ودعاء، وقيام ليل، وصيام وصدقة، إلى غير ذلك من النوافل، يشغلك ذلك إن شاء الله عن وساوس شياطين الإنس والجن لك.

قصر الأمل: وقصر الأمل يدفع إلى علو الهمة وحسن العمل.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: أخذ رسول الله - ﷺ - ببعض جسدي فقال: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)، وكان ابن عمر يقول: (إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) (١٧٩).

(١٧٧) [أخرجه البخاري (٦٥٠٢)].

(١٧٨) [نور على الدرب (٦٧٨٤)].

(١٧٩) [أخرجه البخاري (٦٤١٦)].

فمن خلال توجيه النبي - ﷺ - على المؤمن أن يجعل الدنيا دار عمل وعبادة ليحصد ثواب ذلك في الآخرة؛ لأن الآخرة هي دار القرار، وليست الدنيا إلا داراً فانية ستنتهي إن عاجلاً أو آجلاً.

فعابر السبيل أشد زهداً في مغريات طريقه من الغريب؛ لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربه وقيم فيها، بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد، وبينه وبين بلده مسافات شاسعة، وهو في حالة تخفف دائمة من الأثقال حتى لا تعيق أو تؤخر عن بلوغ المقصد.

فعلى المؤمن أن يستحضر في قلبه دائماً حالة الغريب أو المسافر لحاجته وغايته في تعامله مع شهوات الدنيا ومتطلباتها؛ ليصل بذلك إلى آخرته التي هي دار إقامته الدائمة في أسلم حال؛ فهو لا يركن إلى الدنيا، بل يعلق قلبه بالدار الآخرة، فإذا فاجأه الموت كان كمن وصل إلى غايته.

وإذا تؤخر عملاً من الطاعات إلى الصباح؛ فلعلك تكون من أهل القبور، وإذا أصبحت فلا تؤخر عمل الخير إلى المساء؛ فقد يعاجلك الموت، واغتنم الأعمال الصالحة في الصحة قبل أن يحول بينك وبينها المرض، واغتنم حياتك في الدنيا، فاجمع فيها ما ينفعك بعد موتك.

على قدر إقبالك على الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وانشغالك به ستستريح نفسك إن شاء الله تعالى، وتتخلص من وساوس شياطين الإنس والجن، وتذكر الموت والبلى،

تكون مرضاة الله - جَلَّ جَلَالُهُ - وطلب رضا زوجك أولى وأعلى عندك من كل شيء،
والموفق من وفقه الله تعالى.



قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

حَرَكَاتُهُمْ وَهُمْوُمُهُمْ وَعُزُومُهُمْ
لِللَّهِ، لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ

المقام التاسع عشر:- الحنفية: أن تتوجه الحركات واللفظات والإرادات إلى الله تعالى، وما يقرب إليه، وقد مدح الله بذلك خليله إبراهيم - ﷺ - فقال - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٨٠)، والحنيف المقبل على الله، المعرض عما سواه.

أشار الناظم - رَحْمَةُ اللَّهِ - في البيت أعلاه إلى ثلاثة أحوال قلبية:

الأول: الحركة وهي مجرد الإرادة، **الثاني:** الهم وهو الإرادة المقترنة بالجزم،

الثالث: العزم وهو الإرادة المقترنة بالجزم مع تهيئ فعل الأسباب المرادة^(١٨١).

بحيث يتفاضل الناس عند الله - عَزَّجَلَّ - بتفاضل ما في قلوبهم من الإخلاص، وحُسنِ القصد، والخشية لله سبحانه، فَمَنْ كَانَ لِلَّهِ اتَّقَى، ولعبادته أخلص؛ كان لله أقرب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١٨٢)، أي إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب.

(١٨٠) [سورة النحل: (١٢٠)].

(١٨١) [شرح الشيخ العصيمي على منظومة السير إلى الله (ص ٩)].

(١٨٢) [سورة الحجرات: (١٣)].

فليس الكرم بأن يكون الإنسان من القبيلة الفلانية أو من الشعب الفلاني، الكرم هو: التقوى، وليس الكرم الذي هو كرم حقيقة إلا الكرم عند الله عز وجل، كرم الإنسان عند بني جنسه كرم لا شك، ويُحَمَّدُ عليه الإنسان إذا ابتغى به وجه الله؛ لكن الكرم الحقيقي النافع هو الكرم عند مَنْ؟ عند الله، وبأي شيء يكون؟ بالتقوى، كلما كان الإنسان أتقى لله كان عند الله أكرم، فإذا أحببت أن تكون كريماً عند الله عز وجل، فعليك بالتقوى، عليك بتقوى الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، فكلها الخير، كلها البركة، كلها السعادة في الدنيا والآخرة.

ويكون ذلك بطاعة الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فإذا رأينا إنساناً يتقدّم إلى المسجد، ويصلي مع الجماعة، ويخشع في صلاته ويؤديها بكل فضيلة، وآخر بالعكس يصلي في بيته، وصلاة يقتصر فيها على الواجب، أيهما أتقى لله؟ الأول أتقى. إذن: فهو أقرب عند الله، حتى لو كان مولى من الموالي، أو مولى الموالي، والآخر من أرفع الناس نسباً؛ فإن الأتقى لله هو الأكرم عند الله عز وجل، كلُّ إنسان يحب أن يُحْظَى عند السلطان في الدنيا، وأن يكون أقرب الناس إليه، فكيف لا نُحِبُّ أن نكون أقرب الناس إلى الله عز وجل وأكرمهم عنده؟! المسألة هوى وشيطان، وإلا لكان الأمر واضحاً، والإخلاص في العمل يُورِث قَبُولَهُ عند الله، والله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صالحاً، وابتغى به وجهه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١٨٣).

وقال ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: (يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه، فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله، فمن اتقاه في عملٍ تقبله منه - وإن كان عاصيا في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه - وإن كان مطيعا في غيره) (١٨٤).

وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ -: (فالطريق لذلك لإخلاص العمل هو الإقبال على الله، وإحضار القلب بين يديه، وأن تعمل العمل تريد وجهه، تريد النجاة من النار، تريد رحمته وإحسانه، سواء كان العمل صلاة أو صوماً أو صدقة أو حجاً أو عمرة أو غير ذلك، هذا هو الإخلاص: أن تقصد وجه ربك تريد التقرب إليه .. تريد رحمته .. تريد قبوله منك .. تريد النجاة من النار .. تريد الفوز بالجنة، لا تفعله رياء ولا سمعة، ولكن تفعله تريد وجه الله .. تريد الدار الآخرة .. تريد النجاة .. تريد براءة الذمة، هكذا المؤمن، فالواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يكون عمله لله، وأن يقصد بهذا العمل وجه ربه والقربة لديه؛ لعله يرضى عنه، ولعله يتقبله منه) (١٨٥).



(١٨٤) [٢].

(١٨٥) [نور على الدرب (١٦٧٦٨)].

قال الناظر - رَحْمَةُ اللَّهِ -:

نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي
تُفْضِي - إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

قالت الشارحة - وفقها الله -:

المقام العشر-ون: المداومة على هذه المقامات العلية، ومجاهدة النفس في الثبات عليها؛ فإن للنفس إقبال وإدبار، وهمة وفتور، والسعيد من كانت خاتمة السعادة. والإسلام هو الحياة الطيبة، التي يعيشها المؤمن بقلبه وإن ابتلي في جسده أو أسباب معيشتة، وهو النعيم الذي يملأ صدره رضا وسكينة وإن قل ما في يده من المال والمتاع، وهو السعادة التي تغمر جوانحه وإن ساءت ظروفه وتكالب عليه الأعداء، فهو يحيا مطمئن النفس منشرح الصدر، سعيدا بطاعة ربه فرحا بعبادته، مسرورا بإيمانه، مستغنيا بذلك عما يفرح به الناس من حطام الدنيا وزخارفها وزينتها وترفها.

والمتبع لسيرة المصطفى - ﷺ - يلاحظ ثباتاً عجيباً على الدين، وإصراراً قوياً على المضي، وعدم التنازل عن شيء من الدين؛ مهما تنوعت أساليب المشركين إغراءً أو تهديداً.

فالباطل هزيل ولو كان أصحابه يملكون العدد والعدة، والحق أقوى ولو لم يحمله إلا القليل من الناس يشهد لذلك قوة انتشار الإسلام، وعجز الأعداء عن

إيقافه، وما ذاك إلا لأنه حق.. وإن دينا ما أن يعرفه الناس على صورته الحقيقية، حتى يدخلوا فيه أفواجا، لحري أن ينتشر في أصقاع الأرض كما انتشر أول مرة، فلتتق الله ولنصبر، ولنتمسك بهذا الدين العظيم، ولنستقم على منهجه القويم، فهذا هو وقت التمسك بالدين والاستقامة عليه، وهذا أوان الإكثار من عبادة الله والإقبال عليه، وليبشر - الصابرون المستقيمون على أمر الله كلما تأخر الزمان، وكلما عظمت الفتن وضعف الإيمان، وكلما فسدت الأخلاق وكثر المحاربون لدين الله.

أن أعظم كنز يكتنزه المسلم في حياته لينفعه بعد مماته، هو الثبات على الدين، والتمسك به والعض عليه بالنواجذ، حتى يتوفاه الله عليه، ويلقى ربه به، ويا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، البر لا يبلى والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان.

والإنسان جُبِلَ على حبِّ مُحَالِطَةِ الْآخِرِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذَ لَهُ جَلِيسًا يَعْينُهُ عَلَى مَصَالِحِهِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْخَيْرُ الْفَاضِلُ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِصُحْبَتِهِ وَصِدَاقَتِهِ، وَمِنْهُمْ السَّيِّئُ الَّذِي يَتَضَرَّرُ بِصِدَاقَتِهِ وَمَعَاشَرَتِهِ.

والإنسان مجبول على التأثر بصاحبه وجليسه، والأرواح جنودٌ مجندة؛ وتألَّفُها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين

متقابلين، فإذا تلاقت الأجسادُ في الدنيا اختلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه،
فيميل الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الأشرار.

وكم من شخص اهتدى، وأصبح من المحافظين على الصلاة، وترك مُجالسة
أهل السُّوء، وتوجَّه إلى الدعوة، كُلُّ ذلك بفضل الله، ثُمَّ الرفقة الصالحة!

وغالب مجالس أهل الفسق لا يُذكر الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فيها؛ بل يُعصى -
جَلَّ جَلَالُهُ - فتكون حسرةً وندامة على أصحابها يوم القيامة؛ فجلّيس السوء ينصرف
عن صاحبه عند أدنى خلاف أو فوات مصلحة؛ بل وتحصل البغضاء بعد ذلك.

